صقر البحر

رفائيل ساباتيني

mersalli

روايات الهلال ٨ قروش روائع القصص العالمي

صقر البحر

بقلم

رافائيل ساباتيني

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

مؤلف الرواية

« سابانينى » مؤلف هذه الرواية ايطالى الام ، ولكنه انجليزى الاب .. ومع ذلك فهو وفى لوطنه الذى ولد فيه وترعرع بين أكنافه .. ولذلك كتب فى تاريخه عدة روايات ، من اروعها رواية « سيف الاسلام » التى قدمنا ترجمتها للقراء فى سلسلة روايات الهلال فى فبراير من عام ١٩٥٤ بعنوان « قلبان فى عاصفة »

لقد اشتهر « سابانينى » فى جميع رواياته بروعة الاسلوب القصصى ، ووصف الحوادث الجسام فوق ظلمات الامواج ، وبين عواصف البحار .. ولسابانينى غير هذه الرواية التى نقدمها لقرائنا روايات عدة منها « قيصر بورجيا » التى صدرت عام ١٩١٤ .. أما رواية « صقر البحر » The Sea Hawk التى يسرنا أن نقدمها لقرائنا فقد الفها فى عام ١٩١٥

وهى تعد من أروع رواياته ، واغناها بالاثارة والتشويق ، لهذا سيمضى القارىء بين صفحاتها وقتا من أسعد الاوقات ، كما أنها توافق الذوق العربى ، فاحداثها تدور فى رقعة عربية فى غربى البحر المتوسط

كما له ايضاً : سكارامويش وعودة سكارامويش بالإضافة الى قصته الشهيرة صوت الشعب وابن الشعب ورسول الملكة وكنوز الفرسان وملك بروسيا وأمير العشاق والمذبحة والفارس واللبالي الحمراء والجهاد

شخصيات الرواية

صقر البحر : Sakr El-Bahr	ـ نبيل انجليزى كان اسمه قبل ذلك السير اوليفر تريسيليان
ليونيل تريسيليان : Lionel Tresillian	ـ الشقيق الاصغر لاوليفر
روزاموند جودلفين : Rosamund Godolphin	ـ فتاة من اعرق العائلات الانجليزية
السير جون كيليجرو : Sir John Killigrew	ـ نبيل انجليزى ، روصى على روزاموند
اللورد هنرى جود : Lord Henry Goad	ـ قاضى مقاطعة كورنوال
الكابتن لاى : Captain Liegh	ـ قرصان بحرى
اسد الدين باشا : Asad El-Din Pasha	ـ امير الجزائر
فضيلة : Fenzileh	ـ زوجة اسد الدين
مرزاق : Marzak	ـ ابن اسد الدين

الفصل الأول

الأسير

كان صقر البحر ، بطل البحر الابيض المتوسط ، وباعث الرعب فى الدول الاوروبية المطلة عليه ، ولاسيما اسبانيا .. راقدا على مرتفع صخرى فى راس سبارتل بالجزائر

وفوقه كانت تمتد الى مسافات لا يصل الى نهايتها البصر بساتين اشجار البرتقال التى تشتهر بها مدينة العرايش ، وعلى مسافة ميل او نحو ذلك من جهة الشرق ، كانت تبدو اكواخ ومضارب البدو المقيمين فى تلك المنطقة الخصيبة المملوءة بالمراعى والممتدة ايضا الى حيث لا تصل العين .. حتى تصل الى سيناء جنوبى مضيق جبل طارق ..

وكان صقر البحر راقدا فى ثوبه الفاخر المصنوع من وبر الجمل ، والمطرز بخيوط الذهب والفضة والقصب ، ومن ورائه وقف عبدان فى لون الابنوس ، عاريان الا من ثوب ابيض ملفوف على وسط كل منهما ، وممسكان بمروحتين كبيرتين من الذهب يروحان بهما فى بطء ورتابة على سيدهما ، ويطردان عنه فى الوقت نفسه الذباب

وكان صقر البحر فى أوج الشباب ، رجلا فاره الطول ، قوى الجسم ، عضلاته مفتولة كعضلات هرقل فى الاساطير اليونانية .. تنم كل حركة تبدر منه عن القوة والفتوة وتمام الصحة . وكانت لوجهه الوسيم الملوح لحية سوداء مدببة ، تقابلها على الراس عمامة بيضاء مزينة فى الوسط بماسة كبيرة تساوى ثروة ضخمة . وكانت عيناه عسليتين فاتحتين ، وفمه مزموم الشفاه ، وحول خصره زنار من الجلد الاحمر ، فيه خنجر مقبضه مرصع بالاحجار الكريمة ،

وفى قدميه خف مراكشى من الجلد البنفسجى اللون ..

وناحية اليسار وعلى بعد بضع خطوات منه .. كان ثمة رجل آخر فى مبعة الشباب ، راقدا على وجهه ، معتمدا على الارض بمرفقيه ، يمعن النظر الى مياه البحر . وكان ايضا طويلا قوى الجسم ، ولكنه كان مرتديا درعا من الصلب ، وعلى راسه خوذة مخروطية .. وعلى جانبه سيف قصير باتر

وظل الرجلان على هذا النحو حتى شاهدا ما كانا ينتظرانه بفارغ الصبر .. شاهدا ، من بعيد ، سفينة شراعية اسبانية تنساب امام ريح خفيفة ، ثم تقترب من مجموعة صخور لتدور حولها .. ثم تنطلق بعيدا عن الساحل الافريقى الذى يكمن فيه ربابنة السفن المغامرون الذين كرسوا حياتهم للقضاء على كل سفينة اسبانية او اوروبية تقترب من ذلك الساحل . وكان هؤلاء الربابنة المغامرون يعملون تحت امرة اسد الدين باشا والى الجزائر ، الذى اشتهر بمغامراته وصولاته فى البحر الابيض المتوسط ، قبل ان يستقر فى قلعته « القصبة » ليدير منها شئون ولايته

اخذت السفينة الاسبانية ، وقد بسطت اشرعتها الخمسة ، تقترب رويدا .. وقد وقف فى مقدمتها ربانها بملابسه الزاهية ، يمسح وجه البحر بمنظاره خشية المفاجاة .. ولو انه كان يعلم ان وراء الصخور الهائلة التى يقترب منها تكمن سفينة صقر البحر ، لارتد على عقبيه مسرعا اسراع الارنب امام كلب الصيد !

وسرى الانفعال فى صدر الرجل ذى الدرع ، فقال لصقر البحر بصوت مهتاج :

ـ انها آتية .. آتية

وقال صقر البحر بهدوء :

ـ ان شاء الله .. ان شاء الله

ثم اردف قائلا بعد ان ازدادت السفينة اقترابا :

ـ انها سفينة اسبانية يا بسكاين .. عظيم جدا .. الحمد لله

ـ ولكن ، هل سيجرؤ ربانها على الاقتراب اكثر من هذا ؟

فاجاب صقر البحر اجابة الواثق المطمئن :

ـ تاكد من هذا .. انها لا تتوقع ان تجد من يهاجمها فى هذه

المنطقة الثانية .. الا ترى كيف تتقدم بكل كبريائها الاسبانى ؟!

وظلت السفينة فى تقدمها حتى لم يعد بسكاين ـ البراق ، يستطيع أن يتمالك نفسه من فرط الانفعال . وكان قد اطلق عليه اسم « البراق » لما اشتهر به من سرعة خاطفة فى العدو ، وفى الهجوم ، وفى القفز من سفينة الى اخرى

قال منفعلا :

ـ الآن يا صقر البحر ..

فرد هذا قائلا بهدوء :

ـ لا ، ليس الآن لانها كلما ازدادت اقترابا من الساحل ، كان هلاكها محتوما ، ولا يزال الوقت منفسحا امامنا لاطلاق نفير الهجوم

ثم أردف قائلا لاحد عبديه :

ـ اسقنى يا أبيض

وكان يطلق عليه اسم أبيض على سبيل المفارقة ، لان لون بشرته كان أسود حالكا ..

واستدار العبد ، ورفع كمية من نبات السرخس عن اناء من الفخار الاحمر ، ونزع عنه الغطاء .. وصب من مائه البارد فى قدح قدمه لصقر البحر

وبعد لحظات كانت السفينة على مسافة نصف ميل فقط من الساحل ، ومن ثم هب صقر البحر واقفا ، واعلن بدء عملية الهجوم .. وما هى غير دقائق حتى كان صقر البحر قد لوح بمنديل احمر الى سفينتيه المختبئتين فى كمين وراء الصخور .. وحتى كان قد هبط من المرتفع الصخرى : ومن ورائه بسكاين ـ البراق . ثم قفز الاثنان من الشاطىء الى سفينة القيادة ، وتواثبا على المجاديف المبسوطة من أحد الجانبين ، ثم تولى صقر البحر القيادة

وأثارت المفاجأة موجة من الارتباك على ظهر السفينة الاسبانية ، وحاول ربانها أن يستدير بها للهرب ، وراح مساعدوه يلهبون بالسياط ظهور العبيد الاسرى العاملين على المجاديف ليضاعفوا الجهد ، وشرع آخرون يديرون الاشرعة .. ولكن عبثا حاولوا ـ بطبيعة الحال ـ أن يغيروا طريقة اتجاه الرياح لصالحهم ، هذا بينما كان المحاربون يجرون هنا وهناك استعدادا للقتال ، ورجال المدفعية

يصوبون فوهة المدفع الوحيد فى السفينة نحو المهاجمين

ادرك صقر البحر هذا كله بنظرات خاطفة ، وسرعان ما استفاد من مفاجأة الهجوم .. فقطع خط الرجعة على السفينة الاسبانية اثناء محاولتها الهرب ، وحصرها بين سفينتيه .. وقبل ان يتمكن رجال مدفعية السفينة المحاصرة من اطلاق قذيفة ثانية ، كان رجال صقر البحر قد اطبقوا عليها ، والقوا بالخطاطيف التى تشبثت بجوانبها ، ثم اندفعوا مهللين مكبرين الى سطحها ، يقودهم صقر البحر كالمارد الرهيب .. فكانت معركة حاسمة ، قصيرة الامد ، لم يلبث الاسبانيون بعدها ان القوا بالسلاح بعد أن فقدوا أكثر من نصف عددهم بين قتيل وجريح

وبعد انتهاء المعركة شق صقر البحر طريقه وسط هتاف رجاله المحاربين وتهليلهم وتكبيراتهم ، الى المحاربين الاحياء من الاسبانيين الذين اجتمعوا فى ذلة واستسلام فى الطرف الاقصى من السفينة فى رعب .. ينتظرون مصيرهم فى اسواق الرقيق بالجزائر وبلاد المغرب

أما الاسرى والعبيد من العرب الذين كانوا يعملون فى مقاعد التجديف بالسفينة ، مقيدين بالاغلال .. فقد راحوا يهللون ويكبرون ، وقد ادركوا ان ساعة الخلاص بالنسبة لهم قد دنت !

وتوقف صقر البحر امام ربان السفينة المهزومة ، وكان هذا رجلا اسبانيا من قشتالة ، مسرفا فى اناقة ملابسه ، واضعا على رأسه قبعة مخروطية كثيرة الريش ، يتوسطها صليب ذهبى

وحياه صقر البحر باحترام ، وقال له باسبانية سليمة :

ـ يوم لك ، ويوم عليك ، أيها الربان .. ما اسمك ؟

فقال الربان الاسبانى ، وهو يحاول أن ينتصب فى وقفته ويحتفظ بكبريائه :

ـ انني الدون باولو دى جوزمان

فابتسم صقر البحر باحتقار ، وقال :

ـ اى من ابناء الطبقة الراقية فى اسبانيا .. وانك لتبدو قويا ممتلىء الجسم .. ولا شك انك تساوى فى سوق العبيد بالجزائر نحو مائتى جنيه من الذهب ، ويمكنك ان تفتدى نفسك اذا شئت بخمسمائة ..

ورغم اعتناق الربان للمذهب الكاثوليكى الذى يحرم النطق بالعنة والسباب ـ مهما تكن الظروف ـ فقد راح يلعن ويسب حتى أوقفه صقر البحر بحركة ازدراء من يده ، وقال :

ـ لقد رفعنا قيمة الفدية الى الف جنيه بسبب هذه اللعنات ولعدم احترامك لنا

ثم أردف قائلا لاتباعه :

ـ احملوه بعيدا .. واعتنوا به حتى يدفع الفدية الكبيرة

ولم يستغرق صقر البحر وقتا طويلا فى معالجة امر الباقين .. فراح يعرض على كل منهم ان يدفع الفدية او يقع فى الاسر . واستطاع ثلثهم ان يفتدوا أنفسهم بالمال ، فوضعوا فى سفينة صغيرة مزودة بالمؤن ، واطلق سراحهم .. ثم قال لهم صقر البحر قبل ان يمضوا :

ـ اخبروا اهليكم فى اسبانيا اننا قوم منصفون ، واننا نلتزم قواعد ديننا السمح ، فنعفو عن كل ما يدفع الفدية . اما انتم ، فانكم لا تعفون عن احد ممن يقع بين أيديكم حتى ولو دفع مثل وزنه ذهبا

وتولى بسكاين ـ البراق ، الذى كان بمثابة الضابط الاول لصقر البحر ، أمر الاسرى الباقين . اما صقر البحر ، فقد انثنى الى العبيد والاسرى المشدودين فى السلاسل فى مقاعد التجديف على حافتى السفينة ، فوجد أنهم لايزيدون على اثنى عشر شخصا : ثلاثة من اليهود ، واثنان من الهراطقة ، اى الذين يدينون بمذهب آخر غير المذهب الكاثوليكى ، وسبعة من المسلمين

وهتف الاسرى المسلمون ، بعد أن علموا انهم وقعوا بين ايدى اخوان لهم فى الدين ، فرحين مهللين .. وركع اليهود الثلاثة باسمين وهم يأملون خيرا على ايدى المسلمين بعد أن ذاقوا الاهوال على أيدى الاسبانيين . أما الهرطقيان ، فقد وقفا فى استسلام ، وكأنما يدركان انهما كالمستجيرين من الرمضاء بالنار !

وكان احدهما رجلا قوى الجسم ، مقوس الساقين ، ملوح الوجه ، اشيب الشعر واللحية ، مرقط الجلد ـ كالفهد ـ ببقع سوداء كبيرة ...

لفت هذا الرجل نظر صقر البحر دون الاسرى جميعا ، فتقدم نحوه .. وراح يتأمله فى صمت وكأنما لا يكاد يصدق عينيه . ورفع الرجل رأسه الى صقر البحر فى صمت اليائس الذى لم يعد يهمه شىء فى الحياة ، ولكنه لم يلبث أن انتفض وراح يحملق فى وجه صقر البحر .. وكأنما لا يصدق هو ايضا عينيه . ولما أيقن اخيرا ما ترى عيناه ، هتف قائلا بصوت كله الدهشة ، وبلغة انجليزية دارجة :

ـ يا للشيطان ..!

ثم اردف قائلا فى هدوء ، وقد تمالك نفسه :

ـ طاب يومك يا سير اوليفر .. اعتقد انك ستسعد الان حين ترانى معلقا فى حبل المشنقة

فقال السير اوليفر ، أو صقر البحر :

ـ الله اكبر ...!

الفصل الثاني

حقيقة صقر البحر

من اعجب العجب ان يكون صقر البحر ، المجاهد الاسلامي الكبير، وباعث الرعب فى الدول الاوروبية المطلة على البحر الابيض المتوسط، والقائد الاثير لدى اسد الدين والى الجزائر .. هو نفسه السير أوليفر تريسيليان سيد مقاطعة بينارو فى اقليم كورنوال ؟ كيف حدث ذلك !!...

ان اللورد هنرى جود المؤرخ الانجليزى المعروف كتب تاريخا مسهبا عن الحياة المزدوجة التى عاشها ذلك النبيل الانجليزى ، وهن الاحداث الرهيبة التى تخللت سنوات حياته فجعلتها فريدة من نوعها

▱

كان أوليفر عندما بلغ سن الرشد ، قد ورث عن ابيه مقاطعة بينارو بما فيها من مزارع وغابات وأراض لا مثيل لها فى اقليم كورنوال من حيث الخصب والثراء . وكانت المقاطعة المجاورة له مباشرة يمتلكها شاب آخر هو بيتر جودلفين ، وكان يعيش مع أخته الحسناء روزاموند . وقد حدث أن ربط الحب بين أوليفر سيد مقاطعة بينارو وبين روزاموند الحسناء برباط قوى ، جعل الحبيبين يعتقدان تماما انه لا حياة لاحدهما بدون الآخر .. ولكم شهدت معانى المقاطعتين ، ولكم شهدت لياليها المقمرة من الوان الحب العذرى بين الحبيبين ، ولكم انصت الليل الى همسات نجواهما ، والى خفقات قلبيهما ، والى اغاريد شفاههما حين كانت تلتقى فى قبلات يغيب من عذوبتها الوجدان ، وتدور من خمرتها الرءوس وأفاق الحبيبان من نشوة الحب على رفض بيتر جودلفين لزواج

اخته من أوليفر .. فقد كانت المنافسة بين الشابين فى الاوساط الراقية بلندن على أشدها ، وبقدر ما كان الناس يمطرون ثناءهم على أوليفر لما امتاز به من وسامة وقوة وجراة ودماثة أخلاق .. بقدر ما كانوا يسخرون من بيتر ويهزءون به لانه شاب مستهتر .. سيىء السلوك مدمن خمر ..

وكان لاوليفر أخ غير شقيق من أبيه يدعى ليونيل ، وقد عاش هذا الاخ الاصغر ليونيل وهو يرضع لبان الحقد على أخيه أوليفر الذى ظفر دونه بكل شيء بالاملاك ، واللقب ، بحكم أنه الاكبر سنا . ومما ضاعف حقده على أخيه الاكبر أنه كان يحب ـ سرا ـ الحسناء روزاموند حبا عنيفا جارفا ، ولكنه لم يستطع أن يكاشفها بهذا الحب ، لانه يعلم مابينها وبين أخيه من حب وثيق لا تنفصم عراه

وفى ذات ليلة فوجئت البلاد بمقتل الشاب بيتر جودلفين ، وثبت أن القاتل ترك اثار دماء بين مسرح الجريمة وبيت الشاب أوليفر ، ومن ثم اتجهت اصابع الاتهام الى أوليفر .. ولا سيما بعد أن عرف ما كان بينهما من عداء مستحكم عنيف

وعبثا حاول أوليفر أن ينفى الاتهام عن نفسه .. فقبض عليه ، وقدم للمحاكمة بمدينة تروورد .. ولكن القضاة أصدروا الحكم ببراءته لعدم ثبوت الأدلة . الا أن روزاموند كانت تؤمن كل الايمان بأن أوليفر هو قاتل أخيها ، ومن ثم قطعت كل علاقة لها به ، فزادت بذلك موقفه حرجا امام الراى العام ، الذى آمن بدوره أنه هو القاتل الحقيقى ، رغم صدور الحكم ببراءته

أما القاتل الحقيقى ، فكان الاخ الاصغر ليونيل الذى لجأ الى أخيه أوليفر عقب ارتكابه الجريمة ليتستر عليه . وقد كان هذا هو السبب الذى من أجله لم يستطع أوليفر أن يعلن براءته الكاملة بالارشاد عن القاتل الحقيقى ، الذى هو أخوه !

وأمضى أوليفر اياما عصيبة كان يرى فيها نظرات الاتهام موجهة اليه من الجميع حتى أصبح فيما يشبه العزلة التامة . ومما ضاعف من آلامه أن السير جون كليجرو ، خصمه الاجتماعى ، قد عين وصيا على الآنسة روزاموند ، وهكذا تجمعت ضده كل العوامل التى جعلت حياته جحيما لا يطاق

وكانت الخصومة بينه وبين السير جون كيليجرو ، ناشئة من رغبةالسير كيليجرو فى اقامة ميناء صغير على مصبنهر فال الواقع فى مقاطعة بينارو ، وذلك لكى يصنع فى هذا الميناء سفينة من سفن الاحلام التى لم تشهد البحار لها مثيلا ، ولكى يبحر بهذه السفينة الى مختلف مناطق العالم جديده وقديمه ، ولكن اوليفر كان يعارض فى انشاء هذا الميناء ، واستصدر حكما من محكمة تروورد بتأييده فى هذا الموقف

وفى ذات ليلة ، فوجىء اوليفر بجماعة ملثمين ينقضون عليه ويحملونه الى الشاطىء بعد أن أوثقوا يديه وقدميه وكمموا فمه ، وسلموه الى قرصان معروف فى ذلك الحين يسمى الكابتن لاى . وحمله هذا القرصان فى سفينته آملا أن يبيعه فى جزائر الهند الغربية ليشتغل كعبد فى مزارع القصب هناك

وبطبيعة الحال ظن الرأى العام فى انجلترا أن أوليفر هرب من البلاد خوفا من أن ينكشف أمره فىالنهاية ، باعتباره القاتل الحقيقى للشاب بيتر جودلفين شقيق روزاموند

وفى أثناء انطلاق سفينة الكابتن لاى الى جزر الهند الغربية ، اعترضتها بعض قطع الاسطول الاسبانى وهاجمتها وأغرقتها ، وكان السير أوليفر والكابتن لاى بين العشرين أو الثلاثين بحارا الذين استطاعت السفينة الاسبانية انقاذهم من الغرق

وحمل الناجون جميعا الى مدريد حيث سلموا الى رجال المحكمة المقدسة ، محكمة التفتيش .. ولما كانوا جميعا ، فى نظر هذه المحكمة ، من الهراطقة ، أى من أنصار المذهب البروتستانى ، فقد تقرر بصفة مبدئية تحويلهم الى دير الرهبان الدومينيكيين لهدايتهم وتحويلهم الى المذهب الكاثوليكى

ولم يكن السير أوليفر من أسرة تقيم أهمية كبرى للمذاهب الدينية .. ومن ثم لم يعارض فى كثير أو قليل فى اعتناق المذهب الكاثوليكى حتى لا يحرق وهو على قيد الحياة اذا رفض !

أما الكابتن لاى ، فكان بطبيعة الحال على استعداد لأن يفعل اى شىء أو يقبل اى شىء لينجو من مثل هذا المصير

وبعد أن تمت مراسم اعادة تعميدهم على المذهب الكاثوليكى فى

احتفال دينى كبير ، أعيدوا ـ أوليفر ولاى وبعض الناجين معهما ـ الى المحكمة لتحاكمهم باعتبارهم بعض قراصنة البحار

وتمت المحاكمة ، وصدر الحكم المخفف ـ أى بدلا من الاعدام ـ وتقرر تحويلهم الى العمل جدافين فى احدى سفن الاسطول الاسبانى

وعبثا حاول كل من أوليفر أو الكابتن لاى النجاة من هـذا المصير .. فقد تم ترحيلهما الى سجن لشبونة الرهيب ، ومنه افترق الاثنان .. وكان نصيب السير أوليفر أن يمضى الى مدينة قادش حيث عاش شهرا فى سجنها مع غيره من العبيـد المعدين للعمل جدافين فى سفن الاسطول الاسبانى . ولا يدرى السير أوليفر نفسه كيف استطاع أن يعيش هذا الشهر فى ذلك السجن الرهيب أو الجحيم الدنيوى ..

كان طعامهم الخبز الجاف ، وشرابهم الماء الآسن ، وفراشهم اكوام من القش ، وملابسهم اسمال بالية .. هذا عدا الامراض والأوبئة التى كانت تحصد المسجونين حصدا ..

أما الحشرات على مختلف أنواعها ، فقد وجدت فيهم مرتعا خصبا !

ويعزو السير أوليفر نجاته من هذا الجحيم الدنيوى الى ما كان يتمتع به من قوة بدنية غير عادية ، ومن حيوية فياضة ، ومن مناعة شديدة استطاعت ان تحقنه ضد جميع الامراض

وفى نهاية الشهر ، التقطه ضابط فى سفينة اسبانية كانت فى طريقها الى نابلى .. وهكذا وجد السير اوليفر نفسه مشدودا بالسلاسل الى مقعد من مقاعد التجديف بالسفينة . وقد كان بها صفان من هذه المقاعد على جانبيها ، وفى كل صف خمسة وعشرون مقعدا ، وأمام كل مقعد مقبض مجداف واحد رهيب يعمل عليه أربعة من المجدفين .. أى كان كل مقعد مخصصا لاربعة من المجدفين بحيث يجلسون متلاصقين ، وبحيث لم يكن بينهم وبين الجالسين أمامهم أو خلفهم الا مسافة قدمين فقط . وكان المقعد يرتفع من الجانب القريب من وسط السفينة ، وينحدر نحو طرفها .. وبذلك يمكن للمجدفين الاربعة أن يعملوا بتناسق تدريجى ، وبقوة موزعة توزيعا متساويا عليهم جميعا

وعلى هذا المقعد الخشبى الصلب ، عاش السير أوليفر ستة اشهر

من العذاب الذى يشيب لهوله الولدان

كان خشب المقعد يهرى جسمه ويملؤه بالبثور والخراريج ، وكان خشب المجداف يدمى يديه فى أول الأمر حتى تحجرت كفاه ومات فيهما كل احساس ، وكان سوط المشرف على المجدفين يلهب ظهورهم ويمزقها — بسبب وبغير سبب — وكانت الشمس فى الصيف نهارا تشوى اجسادهم العارية ، والبرد فى الشتاء ليلا يكاد يجمد الدماء فى عروقهم . كل هذا دون أن يستطيع أحدهم أن يرقد على ظهره لينام ، وانما كان عليه ان يتكوم فى مكانه فى ساعة الراحة ويختلس لحظات من النوم

وكان العمل فى التجديف يستمر فى بعض الاحيان عشرين ساعة متوالية عندما تسكن الرياح ، ويضطر الربان الى تسيير السفينة بالمجاديف فقط . وفى خلال هذا العمل المتواصل المهلك ، لم يكن نصيب الفرد من الجدافين غير بضع قطع من الخبز الجاف ومزيج من الماء والزيت والخمر

واذا سقط احدهم صريعا من فرط الاعياء ، حمل الى مؤخرة السفينة وتعرض للهيب السياط .. حتى يفيق أو يموت !.. وعندئذ تلقى جثته فى البحر غير مأسوف عليه ليلتهمها السمك والحيتان !

وكان الجداف فى هذه الحالة اما ان يموت او ان يصبح قطعة آدمية اقوى من الصلب ، وقد شاء القدر أن يكون السير اوليفر من الاحياء الذين تحولت أجسادهم الى عضلات من حديد

وقد مات فى الاسبوع الاول من الرحلة ربع عدد الجدافين ، ولكن كان فى سجن السفينة عدد كبير من العبيد الاحتياطيين ، فحل بعض هؤلاء محل الموتى

وحدث ان كان الجداف الجالس على يمين السير اوليفر مباشرة رجلا مغربيا لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر ، قوى الجسم ، مفتول العضلات ، أثار اعجاب اوليفر بقوة احتماله ، وصبره ، وصمته حتى عن الشكوى

ومرت ايام عديدة دون أن يتبادل الاثنان كلمة واحدة ، اذ كان كل منهما يعرف انه يختلف عن الاخر فى الجنسية والدين .. رغم

اشتراكهما فى المحنة . ولكن حدث ان سقط احد الهراطقة « البروتستانت » صريعا ، فحمل الى مؤخرة السفينة حيث راح يضرب بالسياط امام كاهن يضع الصليب على صدره ، ويرفع يديه طالبا للمسكين الرحمة من السماء

ولما حمل الرجل ليلقى فى البحر ، وهو لا يزال حيا ، مسح الكاهن بيده على جبينه متمتما طالبا له الرحمة لانه سيموت على غير المذهب الكاثوليكى . وقد اثار هذا المنظر نوازع الغضب فى نفس اوليفر ، فقال بلغة اسبانية :

ـ اعتقد أن جهنم لم تخلق الا لمثل هـذا الكاهن وغيره الذين يحاولون أن يجعلوا من الارض جحيما بدلا من أن ينشروا فيها السلام

ولحسن حظه لم يسمعه احد من الرؤساء الجلادين الذين كانوا مشغولين بصرخات الرجل المحمول الى مياه البحر . ولكن جاره المغربى سمعه ، ورد عليه قائلا :

ـ ان الله ، حقا وعدلا ، لم يخلق جهنم الا لامثال هـذا .. ولكن عجبا ، ألست مسيحيا ؟

وكان المغربى يتحدث بلغة هى خليط من الالفاظ العربية والافرنجية ، وكانت هى اللغة المنتشرة حينذاك فى الشمال الغربى للقارة الافريقية . ومع هذا استطاع اوليفر ان يفهمه ، فقال :

ـ انى منذ هذه اللحظة انبذ الديانة التى نشأت عليها ايا كان اسمها ، ولن اعترف ابدا بأية ديانة يسمح علماؤها وكهانها بوقوع مثل هذا الظلم على الجنس البشرى . انظر الى ذلك الكاهن البدين الناعم الواقف يستنشق السعوط فى نشوة ورضا .. ويحاول أن يبتعد عن امثالنا الجدافين ، حتى لا تصل رائحتنا الى انفه ! ومع ذلك فنحن مخلوقات الله ، نحن الادميين الذين احسن الله خلقهم وصورهم وجعلهم خلفاءه فى الارض . فماذا يعرف هذا البدين الاملس عن الله ، وعن الدين ؟.. انه يعرف عن الدين ما يعرفه عن الخمر الجيدة ، والطعام الشهى ، والملبس الفاخر ، والمضجع الوثير ، والنساء الجميلات . هذا هو فى رأيه الدين كله !

وارسل اوليفر ضحكة كلها اسى وتهكم ، وقال بعد برهة صمت :

ـ لقد نفضت يدى من هذه الديانة التى يزعمون انها «مسيحية»

وهى ابعد ما تكون عن تعاليم المسيح الذى يوصى بالمحبة والسلام بين البشر

وقال المغربى :

ـ انا لله وانا اليه راجعون

وكانت تلك الكلمات بدء صداقة وطيدة بين أوليفر، وبين جاره وزميله فى الاستعباد .. الرجل المغربى الذى كان يدعى يوسف بن مختار ، والذى راى فى أوليفر زميلا فى الانسانية كفر بجميع القيم والمثل والمبادىء ، ولكن من الممكن هدايته برفق ، وتوجيهه الى سواء السبيل

وراح منذ ذلك الحين يشرح له الدين الاسلامى ، ورسالة الاسلام ، ووجوب إيمان المسلم بجميع انبياء الله وكتبه ، وان المسلم الذى لا يؤمن برسالة موسى ورسالة عيسى ايمانه برسالة محمد لا يعتبر مسلما حقيقيا . وظل اوليفر ينصت دون ان يبدى رايه .. ولكنه انتهز تلك الفرصة وراح يتعلم اللغة العربية على يدى زميله يوسف هذا ، حتى اصبح ـ فى خلال اربعة اشهر ـ يفهمها جيدا ويستطيع التحدث بها ..

واخيرا وعندما اوشكت الاشهر الستة على الانتهاء ، وقع الحادث الذى أعاد الى السير أوليفر حريته

فبينما كانت السفينة عائدة ذات ليلة من ميناء جنوا بايطاليا ، اذا بها تفاجأ بالقرب من جزائر البليار باسطول صغير مكون من اربع سفن اسلامية .. واذا بحارتها يصيحون فى صوت واحد عندما راوا شعار النجمة الحمراء على اشرعة السفن الاسلامية :

ـ اسد الدين !.. اسد الدين !

الحريق

كان اسد الدين ، والى الجزائر ، اشهر محارب فى العالم الاسلامى يومذاك ، بعد مصرع على باشا ، القائد البحرى الكبير ، فى ليبانتو . وكانت المعركة البحرية التى دارت بينه وبين السفينة الاسبانية قصيرة وحاسمة ، مثل جميع المعارك البحرية التى خاضها ضد الاسطول الاسبانى فى البحر الابيض المتوسط . وسرعان ما انتهت بوقوع السفينة الاسبانية بكل ما عليها ومن عليها فى قبضته

وحدث اثناء احتدام المعركة ، ان استطاع يوسف بن مختار ، بقوته العضلية الجبارة ان يحطم السلسلة الحديدية التى كانت تقيده الى معقده ، وان يساعد السير أوليفر على تحطيم سلسلته ايضا ، وأن ينطلقا معا للاشتراك فى المعركة ضد الاسبان . وكان السير اوليفر يستعمل سلسلته كسلاح رهيب ، راح يجول به ويصول .. وهو يرسل صيحات التكبير والتهليل كالمسلمين ، حتى لفت اليه انظار اسد الدين رغم انشغاله بقيادة المعركة

ويعترف السير أوليفر فيما بعد انه لم يكن يدرى على وجه التحديد ماذا حدث .. أو ماذا فعل فى تلك اللحظات الحاسمة من المعركة . ولكنه حين افاق من أوارها وجدها قد انتهت بانتصار اسد الدين ، ووجد نفسه وجها لوجه مع هذا القائد الباسل الذى كانت لحيته البيضاء المرسلة ، وملابسه الناضرة ، وقامته الفارهة ، وعمامته البيضاء المحلاة بماسة كبيرة على شكل نجمة لالاءة ، تضفى عليه سمات المهابة والاجلال

وكان اسد الدين ينظر ، فى شىء من الدهشة والاعجاب ، الى السير اوليفر بجسمه شبه العارى ، وبعضلاته المفتولة ، وبقوته العجيبة ، وبالدماء التى تكاد تكسوه ، وبالسلسلة الرهيبة التى كانت فى يده . وكان يوسف بن مختار واقفا بجواره ، بجوار اسد الدين يتحدث معه بسرعة . وقد قال أخيرا :

ـ بحق الله .. هل رأى احد محاربا شجاعا مثل هذا ؟ اقسم ان الله وضع فيه من القوة ما جعله يحصد هؤلاء الخنازير حصدا

وابتسم السير اوليفر بوحشية ، وقال :

ـ كنت ارد على هؤلاء الشياطين بعض ضربات السوط ، مع الفوائد !

وكانت تلك هى الكلمات الأولى التى نطق بها امام اسد الدين

وحمل السير اوليفر الى سفينة القيادة فاغتسل ، وارتدى الملابس النظيفة التى قدمت اليه .. ثم اكل وشرب ما طاب له من الطعام والشراب ، واخيرا قدم الى اسد الدين الذى كان جالسا فى مقصورته الخاصة الفاخرة مع يوسف بن مختار

وعرف اوليفر ، فيما بعد ، ان هذه المعاملة الطيبة التى تلقاها كانت بناء على اوامر يوسف بن مختار الذى ثبت انه كان ابن عم اسد الدين ، وانه كان قد وقع فى اسر الاسبان حتى انقذه اسد الدين فى هذه الموقعة الاخيرة

وتحدث يوسف الى اسد الدين حديثا طويلا عن الصداقة التى توطدت بينه وبين اوليفر .. واخيرا قال له اسد الدين وهو ينظر اليه فى اعجاب :

ـ لقد شاءت ارادة الله ان تكون نجاتك من هذا العذاب على ايدينا ، وانى ـ بوصفى زعيما اسلاميا ـ اعرض عليك ، باذن الله ، الدخول فى دين الله ، فاذا قبلت فانت منا .. واذا رفضت ، فان يوسف سوف يدفع عنك الفدية ويطلق سراحك !

وقال اوليفر بحرارة :

ـ انى على استعداد لاعتناق اى دين يأمر بقتال هؤلاء الشياطين الاسبان

وهكذا اعتنق السير أوليفر الدين الاسلامى .. واصبح اسمه « اوليفر ـ ريس » ولم تلبث شجاعته ان جعلته ضابطا اول فى قيادة اسد الدين ، ثم ظل يرتقى بسرعة حتى أصبح فى خلال ستة اشهر نائب اسد الدين فى القيادة البحرية

وذاعت شهرته فى انحاء البحر الابيض المتوسط باسم صقر البحر ، وذلك لما احرزه من انتصارات متوالية فى جميع المعارك التى خاضها ضد اساطيل الدول الاوروبية . وكان يوسف بن مختار قد قتل فى احدى هذه المعارك بالقرب من جزيرة مالطة ، وكانت وفاته بين يدى صديقه أوليفر

وما هى غير سنوات ثلاث حتى أصبح اوليفر ـ ريس ـ او صقر البحر ـ معبود الجماهير فى الجزائر ، وسيف الله المختار فى البحار ، والعلم المرفوع من اعلام الاسلام ، والمرشح الوحيد لان يخلف اسد الدين فى ولاية الجزائر بامر من خليفة المسلمين فى اسطمبول !

وتحول اعجاب اسد الدين به الى صداقة وحب حتى جعله بمثابة ابنه الحبيب .. فكان لا يضن عليه بشىء ، ولا يرفض له طلبا ، ولا ينصت الى وشايات الواشين وحسد الحاسدين الذين ساءهم ان يبلغ هذا « الافرنجى » تلك المكانة الرائعة فى قلب اسد الدين

ومن الوشايات التى كانت تصل الى مسامع اسد الدين ، ان صقر البحر يشترى الاسرى من بنى وطنه الذين يقعون فى ايدى المسلمين ، ثم يطلق سراحهم ، ويعيدهم الى اقرب مكان على الساحل الاوروبى . ولما حاول اسد الدين ان يراجعه فى هذا الامر ، اتخذ صقر البحر موقفا حازما ، واقسم براس « النبى » انه سوف يمارس هذه الحرية التى لا تتعارض مع الدين ، وانه لن يكف عن شراء كل اسير من بنى وطنه لاطلاق سراحه !

وقد اردف قائلا فى هذا الشان :

ـ وارجو يا باشا الا تنسى اننى آتى اليكم بعشرة اسرى من الاسبان او الايطاليين او الفرنسيين مقابل كل اسير انجليزى اطلق سراحه

▱

ويبدو لقارىء تاريخ اللورد هنرى جود عن حياة السير اوليفر ،

انه نسى ، او كاد ينسى تماما ، كل شيء عن بلاده وهو فى غمار هذه الحيـــاة الجديدة المليئة بالاحـداث والمعـارك والمؤامرات ، وانه كذلك نسى الفتاة التى أحبها بكل عواطفه ، والتى ملأت قلبه بالمرارة عندما آمنت بأنه هو ، حقا ، قاتل اخيها

قد يبدو هذا لقارىء ذلك التاريخ .. ولكن الذى حـدث أن السير اوليفر لم ينس وطنه ، ولم ينس الفتاة التى احبها ، ولم ينس الاخ غير الشقيق الذى ابعده عن الوطن بعد ان ارتكب جريمته

والدليل على هذا أن بســـكاين ـ البراق احضر ذات يوم الى الجزائر شابا انجليزيا ليباع فى سوق العبيد . ولما ارسل صـقر البحر واشتراه كالمعتاد ، تبين له انه يدعى هلستون بيت ، وانه من اقليم كورنوال ، وانه لا يزال يذكر الاحداث التى وقعت فى ذلك الاقليم بين عائلتى تريسيليان وجودلفين

شعر اوليفر ، وهو يتبادل الحديث مع مواطنه الشاب ، الذى عرفه بنفسـه ، بالحنين العارم الى مسقط راسه ، والى حبيبته روزاموند ، والى مقاطعته وقصره الفاخر ، والى الارض التى شب عليها منذ طفولته

ومن يدرى ؟ .. فلعل روزاموند ، حين تعـــرف الحقيقة كلها ، تفتح فى وجهه الباب الذى اغلقته ، ثم تفتح له ذراعيها وقلبها !

وكتب لها رسالة طويلة ذكر فيها كل ما حدث له منذ اختطفه اخوه ليونيل وباعه للكابتن لاى ، واعترف فيها باسم القاتل الحقيقى للشاب بيتر ، وذكر فيها ان الادلة على براءته موجودة فى كتـاب احمر كبير عن تربية الصقور فى مكتبته بقصر بينارو ، وان هذا الكتاب لابد ان يكون فى موضعه ، لان ليونيل ليس من هواة القراءة

ثم طلب منها ، بعد أن تقتنع ببراءته ، ان تضع الامر كله بين يدى الملكة ، وأن تظفر منها بالعفو عما قـد يكون ارتكبه فى حق بلاده باعتباره قائدا اسلاميا كبيرا ، وبالسماح له بالعودة الى ممتلكاته

ويقول المؤرخ اللورد هنرى جود ، ان الرسالة فى جملتها ، كانت قطعة ادبية رائعة فى اخلاصها وصدق معانيها وروعة اسلوبها . وعدا هذا حمل صقر البحر الشـــاب « بيت » بالهدايا الفـاخرة نروزاموند وطلب منه ان يسلمها الرسالة فى يدها شخصيا ، ثم

اخذ الوسائل التى حملته الى ميناء جنوا ، ومنها ركب « بيت » البحر على سفينة انجليزية عائدا الى بلاده

وبعد ثلاثة اشهر ، تلقى صقر البحر رسالة من الشاب « بيت » عن طريق اقطاعية جنوا التى كانت فى حالة سلام مع الجزائر . وقد اخبره « بيت » انه قام بمهمته . وانه سلم الرسالة الى روزاموند التى تقيم مع الوصى عليها فى قصر آردیناك ، ولكنها ما كادت تعرف انها مرسلة من السير أوليفر حتى القت بها ، دون ان تفضها ، الى نيران المدفأة ، وطردته من القصر بجفاء !

وامضى صقر البحر تلك الليلة فى بستان قصره مؤرقا ، وقد قال مبيده فيما بعد انهم — لعجبهم الشديد — سمعوه يبكى ! .. واذا كان قد بكى حقا بعينيه ، وبقلبه ، فقد كانت آخر دموع ذرفها على غرامه الضائع ، وعلى مسرح صباه وشبابه . ومنذ ذلك الحين ، لم يعد يهتم بأى اسير انجليزى يقع فى ايدى العرب

وانطلق صقر البحر فى غزواته التى زادته شهرة ومجدا .. ونسى ، او كاد ، كل ما يتعلق بماضيه فى بلاده ، وقرر أن يكرس نفسه لحياته هذه الجديدة

ولكن حدث بعد عامين من رسالة « بيت » الاولى ، ان تلقى منه رسالة ثانية اظهرت ان هناك ، بين الناس ، من لا ينسى الجميل ، وذلك لان « بيت » ، بدافع من عرفانه بجميل صقر البحر ، راى ان يكتب اليه مرة ثانية ليطلعه على آخر التطورات التى حدثت بشأنه فى بلاده

واصابت هذه الرسالة الثانية صقر البحر بصدمة اخرى ، وملأت قلبه بالمزيد من الالم .. فقد علم منها ان السير جون كيليجرو رفع دعوى على صقر البحر اثبت فيها انه تخلى عن ديانته وعن جنسيته ، وانه انضم بقلبه وسيفه الى اعداء البلاد ، فصدر الحكم باعتباره ميتا .. ومن ثم آلت كل ممتلكاته والقابه الى أخيه الاصغر ليونيل

واستطرد « بيت » فى رسالته قائلا : ان الآنسة روزاموند عادت الى وطنها بعد غيبة عامين فى فرنسا ، وانها قبلت أخيرا الزواج من

اخيه الاصغر ليونيل ، وان هذا الزواج سوف يتم فى شهر يونية ، وان السير جون كيليجرو يبارك ويتعجله حتى يرى الآنسة روزاموند مستقرة اخيرا فى بيت الزوجية .. وبذلك تتاح له الفرصة التى عاش يحلم بها ، وهى السفر الى الهند بفينته الجديدة التى اوشك على الفراغ من انشائها

وعض صقر البحر على نواجذه ، وهو يذكر اخاه الاصغر الذى ارتكب الجريمة ، وابعده عن البلاد ، وآثار فى حياته كل هذه الاعاصير ، ثم جاء اخيرا ليتزوج من حبيبته بعد أن ظفر بممتلكاته والقابه

ووجد نفسه فى تلك اللحظة يقسم على الانتقام ، ولو ضحى بحياته فى هذا السبيل !

وراح ينتظر الفرصة السانحة الى ان وجدها فى شخص الكابتن لاى الذى وقع اسيرا بين يديه فى آخر غزوة بحرية له

mersalli

العودة إلى الوطن

وجد الكابتن لاى الاسير نفسه ـ وهو فى الكابينة ـ وجها لوجه مع صقر البحر !

ولم يكن هذا الاخير قد اعرب بعد عما ينوى ان يفعله بذلك القرصان المغامر . ومن ثم كان الكابتن لاى ـ الذى يعرف فى قرارة نفسه انه وغد اثيم ـ قد أمضى ساعات كلها اليأس والشقاء ، متوقعا اسوأ الجزاء

وقال صقر البحر :

ـ لقد تغيرت الاوضاع يا كابتن لاى منذ ان اخذتنى اسيرا فى سفينتك ؟ ..

فاومأ الكابتن لاى برأسه قائلا :

ـ حقا .. ولكن ارجو أن تذكر اننى كنت احسن معاملتك يومذاك

ـ اجل .. ولكن بالثمن .. ويمكنك ، بالثمن ايضا ان تجعلنى احسن معاملتك

وامتلأ قلب المغامر الوغد بالامل .. ومن ثم قال بلهفة :

ـ اطلب ما تشاء من خدمات يا سير اوليفر . واقسم لك اننى لن اتردد فى تقديم اية خدمة يمكننى تقديمها . وحسبى ما لقيت من استعباد طيلة خمس سنوات ، منها اربعة فى مقاعد التجديف . والله يعلم انى كنت اتمنى الموت فى كل يوم .. ولا شك انك تعرف مدى هول هذا العذاب

ـ لقد كنت جديرا به .. ولا اظن ان هناك عقابا كان اعدل مما وقع عليك

ثم اردف قائلا بعد برهة تفكير :

ـ فى استطاعتك ، على كل حال ، ان تصلح من امرك ، وان تعيش حياة حرة كريمة اذا اخلصت لى فى الخدمة . فانا فى حاجة الى ربان يتولى قيادة هذه السفينة لى . فما رايك ؟ هل تقوم بهذه الخدمة فى اخلاص او تفضل حبل المشنقة ؟

فصاح الكابتن لاى . وهو لايكاد يصدق اذنيه من فرط السرور :

ـ سيدى .. اننى مستعد لقيادة سفينتك هذه الى جهنم لو شئت !

ـ اننى لا اريد ان تقودها الى اسبانيا ، وانما اريد أن تمضى بها الى مصب نهر قال الذى اخذتنى منه منذ خمسة اعوام ، وهناك سوف اهبط لمدة ساعات ثم اعود .. فما رايك ؟

ـ بكل سرور ..

ـ انك لو فعلت هذا ظفرت بحياتك وحريتك .. ولكن لا تظن ان فى مقدورك حين تصل الى الاراضى الانجليزية ، أن تقفز اليها وتهرب .. ان عليك ان تعود الى هنا . واذا شئت بعد ذلك ان ترجع الى بلادك ، فسوف التمس كل وسيلة لارجاعك . ولكن حذار من أن تفكر فى الغدر او الخيانة !

ثم اشار الى اثنين من رجاله العمالقة الاوفياء ، واردف قائلا :

ـ لسوف يقوم على حراستك هذان العملاقان من اسود الصحراء ، ولن يصيبك اى أذى طالما اخلصت فى عملك ، والا ، فسوف ينتزع احدهما راسك من جسمك باصبعين فقط !

وقال الكابتن لاى مؤكدا انه لا يفكر فى الخيانة بعد ان نجا اخيرا من ذل الاستعباد ، وبعد ان اصبح طريق الحرية الكاملة مفتوحا امامه

واعلن بسكاين ـ البراق لصقر البحر ان السفينة الاسبانية الاسيرة ليس فيها الكثير من الكنوز والغنائم ، وانما فيها الشىء الكثير من الاسلحة والذخائر ، فضلا عن الاسرى والعبيد

ولشد ما كانت دهشة بسكاين ـ البراق حين تلقى الاوامر التالية من صقر البحر :

ـ خذ الاسرى والعبيد والغنائم القليلة الى الجزائر .. أما كل شىء آخر فسيبقى هنا . كما يجب أن تنتقى مائتى رجل من اشد

الرجال قوة وجراة ليكونوا بحارين ومحاربين فى وقت واحد ، لانى سأقوم برحلة بحرية الى ما وراء البحار

ـ كانك لن تعود الى الجزائر معى يا صقر البحر ؟

ـ ليس الان .. فان امامى رحلة بحرية طويلة يجب ان اقوم بها اولا . بلغ تحياتى الى مولانا اسد الدين ، اعزه الله وابقاه ، وقل له انى سأعود بعد ستة اسابيع ان شاء الله

اثار هذا القرار المفاجىء الذى اتخذه صقر البحر موجة من الحماسة والانفعالات فى نفوس البحارة المغامرين من رجاله .. ذلك انه لم يكن بينهم واحد خرج عن نطاق البحر الابيض المتوسط فى كل مغامراته البحرية . ورغم ماكانوا يسمعونه عن المهالك والمخاطر التى يزخر بها البحر الكبير ، فان احدا لم يتردد فى مصاحبة صقر البحر عندما وقع عليه الاختيار

والواقع ان السير اوليفر لم يكن قد اتخذ هذا القرار فى لحظة خاطفة ، وانما فكر فيه اياما واسابيع ، بل كان تفكيره منصرفا اليه ، وهو راقد على المرتفع الصخرى يرقب السفينة الاسبانية كما يرقب الصقر ضحيته . ولكنه لم يكن يعرف كيف يصل الى انجلترا ، وهو غير خبير بالملاحة البحرية فى ذلك البحر الواسع

ولما وقع الكابتن لاى فى اسره ، ادرك ان الاقدار قد حابته ، وان الفرصة المنشودة قد سنحت ، وان الامل الذى طالما راوده قد اوشك ان يتحقق

وتمت اجراءات البدء فى الرحلة بسرعة .. وما ان اشرقت شمس اليوم التالى حتى كانت السفينة الاسبانية المأسورة قد اطلقت اشرعتها بعد ان محا صقر البحر الاسم المكتوب على جانبها . وكتب ، بدلا منه ، اسمه عليها

وساعدت الرياح السير اوليفر ، فلم تنقض عشرة أيام حتى رأى ـ لاول مرة وبعد خمس سنوات ـ ارض وطنه

الفصل الخامس

الإغارة

كانت سفينة الاحلام التى يصنعها السير جون كيليجرو ، قد تم صنعها فى مصب نهر فال .. بعد ان عمل فيها امهر المهندسين وابرع صناع السفن ، لكى تغدو من اقدر السفن على قطع الرحلات البحرية الطويلة

وكانت عملية تزويدها بما يلزم لمثل هذه الرحلات قائمة على قدم وساق، أما المنطقة المجاورة فقد امتلأت باكواخ ودور العمال والبنائين والحدادين والصناع والمهندسين حتى اصبح المكان اقرب ما يكون الى قرية صغيرة تقوم على مصب النهر ، وتبشر بأن تنمو وتغدو مع الزمن الميناء الصغير الذى كان يحلم به ايضا السير جون كيليجرو

وكان هذا كله قد تحقق له بحكم صداقته لليونيل تريسيليان الذى سحب معارضة اخيه السابقة السير أوليفر ، بل وزاد عليها أن راح يؤيدها بكل ما فى وسعه عند عرض الامر على البرلمان ، وعند تقديم مشروعه الى القصر الملكى للحصول على موافقة الملكة

وكان ينقص ليونيل بعد نظر اخيه اوليفر الذى كان يرى ان اقامة ميناء بحرى فى هذه المنطقة سيفسد جو المقاطعة ، ويؤدى الى تدخل الحكومة وانتزاع ما تشاء من أراض مجاورة .. ولكن ليونيل كان يرى أن هذا كله سيحدث بعد سنوات طويلة ، اى بعد وفاته ، فماذا يهمه فيما يطويه المستقبل البعيد من خير او شر !

أما علاقة ليونيل بروزاموند فقد انقطعت فى الفترة التى تلت موت اخيها ، باعتباره اخا للقاتل المزعوم . ولكن صداقته للسير كيليجرو الوصى عليها ، اتاحت له فرصة زيارتها بين الحين والآخر ،

فراح يتودد اليها ، ويتلطف معها ، ويتنهز كل فرصة لتلبية ابسط رغباتها ، ويتحمل صدها وازدرائها له فى وداعة .. حتى اكتسب فى النهاية مودتها ولما كاشفها بحبه وبرغبته فى الزواج ، اعلنت رفضها قائلة انها لا تستطيع ان تحب او تتزوج شقيق قاتل اخيها!

ولكنه لم ييأس .. وانما ظل يوالى خدماته لها ويتودد اليها فى صمت ، ويتردد معها — بتشجيع من السير كيليجرو — على المجتمعات والحفلات .. هذا بينما كانت هى لا تزال تشعر فى قرارة نفسها بالحب لأوليفر . وعبثا حاولت ان تقسو على عواطفها هذه ، وعبثا حاولت ان تعتبر مجرد التفكير فى أوليفر خطيئة لاتغتفر، الا ان خفقات القلب امر ليس للانسان فيه حيلة !

ورات اخيرا ان تسافر الى باريس لتقضى فترة مع ابنة السير كيليجرو المتزوجة من الملحق العسكرى بالسفارة الانجليزية هناك .. وامتدت الزيارة الى سنتين ، عادت بعدهما الى مقاطعتها والى قصرها فى أورينال ، وقد احست انها تحررت نهائيا من حب السير اوليفر ...

وعاد ليونيل الى تودده لها ، وظل يسترضيها ويكتسب مودتها حتى مالت اليه ، وقبلت الزواج به ..

واعلنت الخطبة رسميا بعد ان صدر قرار المحكمة باعتبار أوليفر ميتا ، وتحدد للزواج يوم معين فى شهر يونية

وقبل موعد الزواج باسبوع ، كان السير كيليجرو قد اوشك تماما على الانتهاء من تزويد سفينته بكل شىء . وقرر ان تكون اجراس الزفاف هى نفسها الاجراس المؤذنة ببدء رحلته الى العالم الواسع على ظهر سفينته التى سماها « سيلفرهيرون »

وفى اليوم الاول من شهر يونية ، كان ليونيل ينزل ضيفا على قصر أورينال هو واللورد هنرى جود — مؤرخ حياة أوليفر تريسيليان — وزوجته .. وكان الجميع ، مع السير جون كيليجرو وروزاموند قد استعدوا لدخول قاعة الطعام الكبرى بالقصر لتناول طعام العشاء . هذا بينما كان العمل يجرى بكل همة ونشاط فى الطابق الاعلى لاعداد اثواب الزفاف الذى تقرر ان يتم بعد اسبوع

وفى اللحظة التى كان السير كيليجرو يتقدم مدعوية الى قاعة

الطعام ، كان صقر البحر ـ السير أوليفر ـ يهبط فى سكون الليل مع لفيف من رجاله على الشاطىء الانجليزى فى مكان لا يبعد اكثر من ميل عن قصر اروبناك

كان قد رأى ان من الحكمة الا يدور حول راس بنداتيس ، وان يلقى المرساة فى خليج سوانيل على الجانب الغربى من المقاطعة وغادر السفينة فى قاربين كبيرين يحملان ثلاثين من رجاله الاشداء. وبعد ان هبط هؤلاء ، عاد الزورقان ليأتيا بعدد آخر من الرجال حتى تكامل عددهم مائة رجل من اقوى واصلب رجال صقر البحر عودا واخلصهم فى خدمته

وكان قد قرر الاستعانة بهذا العدد الكبير حتى يضمن اقتحام القصر بالقوة العارمة التى تجعل اية مقاومة لا تجدى .. فيحول بذلك دون اراقة الدماء . وكذلك قرر اولا ان يمضى الى اروبناك ليرغم السير كيليجرو وروزا موند على سماع الحقيقة كلها منه ، ثم ينثنى الى قصر بينارو ليسوى حسابه مع اخيه ليونيل !

ومضى يقود رجاله فى سكون الليل فى حذر وسرعة ، متخذا من الاشجار ومرتفعات الطريق ستارا حتى وصل الى بوابة القصر الضخمة .. فوجدها ، كما كان يتوقع ، مغلقة ، وطرق عليها بطريقة عادية . وما كاد الحارس يفتحها وهو يحمل المصباح ، حتى فاجأه السير أوليفر بضربة اطاحت بالمصباح ، ثم امسك بعنقه فى قوة ليكتم صيحاته .. ثم تركه لرجاله حتى يكمموه

وبنفس هذه السرعة الخاطفة ، تخلص من كل خادم او حارس اعترض طريقه نحو قاعة المائدة الكبرى التى كانت الانوار الخافتة تنساب من نوافذها مع غمغمة الاصوات

وهكذا فوجىء السير كيليجرو ومدعوه بباب القاعة يفتح عنوة، وبهؤلاء البحارة العرب فى ملابسهم الغريبة يقتحمون المكان بقيادة ذلك العملاق الذى وقف ويداه فى خاصرتيه آمرا رجاله ان يدوروا حول القاعة ، ويقفوا على اهبة الاستعداد للقضاء على كل مقاومة

وبلغ من دهشة السير كيليجرو ومن معه ، انهم ظلوا فى اماكنهم يحملقون بأفواه فاغرة ، وكأنهم لا يصدقون اعينهم ، او كأنهم يشاهدون مفاجأة مسرحية دبرها بعض العابثين من الجيران

وبعد برهة عصيبة من الصمت الرهيب ، تهالك ليونيل فى مقعده وقد شحب وجهه وجحظت عيناه ، وبدا عليه انه عرف اخاه رغم وجهه الملوح ولحيته الانيقة السوداء ، وعمامته البيضاء وملابسه الغريبة الناضرة

والتقت عينا السير أوليفر وانفرجت شفتاه عن ابتسامة قاسية وقال بصوت يقطر بالمرارة والسخرية :

ـ ارى انك ، على الاقل ، قد عرفتنى . وكنت واثقا انك بعواطفك الاخوية الحانية سوف تعرف اخاك رغم كل ما طرأ عليه من تغيير

وشهق السير جون كيليجرو قائلا :

ـ سير أوليفر تريسيليان ؟

واضاف اللورد هنرى جود فى دهشة :

ـ يا الهى .. انه هو !

ورد أوليفر قائلا :

ـ لا .. لم اعد السير أوليفر ، وانما انا صقر البحر ، سيف الاسلام البتار ، وباعث الرعب والفزع فى قلوب الدول الاوروبية ، ومارد البحر الابيض المتوسط .. هذا كله ماصنعته أيديكم فى شاب من شباب كورنوال كان يعيش بينكم آمنا .. ولكنه جاء أخيرا ليسوى معكم الحساب !

وارسلت زوجة اللورد هنرى جود صرخة خافتة .. وشحب وجه روزاموند ، وانعقد لسانها ، واخفى ليونيل وجهه بين يديه .. وفجأة وثب السير كيليجرو الى أحد الاسلحة المعلقة بجدران القاعة ، ولكن كلمة واحدة من صقر البحر جعلت اثنين من رجاله يهجمان كالبرق على السير كيليجرو ويمسكان بيديه من خلاف ، ويرغمانه على البقاء فى مكانه ساكنا

وبكلمة اخرى من صقر البحر ، أطبق ثلاثة من رجاله على ليونيل فقيدوه وحملوه الى أخيه حيث أوقفوه امامه . ونظر صقر البحر اليه برهة ، ثم بصق فى وجهه قائلا لرجاله :

ـ احملوه الى السفينة ..

وسرعان ما اختفى ليونيل عن القاعة ...

وصاح السير كيليجرو بشجاعة رغم يديه المقيدتين :

ـ هل تنوى ان تقتل اخاك ؟

وقالت روزاموند لاول مرة :

ـ اتريد ان تقتله كما قتلت اخى !

وراته يجفل كانما ادمته بكلماتها .. ولم تدر فى تلك اللحظة انها بهذه الكلمات قد غيرت كل ماكان ينوى ان يقوله او يفعله ، وجعلته يدرك ان اى حديث عن براءته لن يجد آذانا صاغية . وهكذا قال فى لهجة ساخرة قاسية ، وهو يرسل ضحكة نابعة من جراح قلبه:

ـ يبدو انك تحبين هذا الاخرق الجبان .. ولست ادرى هل ستظلين على حبه عندما تعرفين الحقيقة كاملة ؟ ولكن هل يستطيع احد ان يعرف تقلبات قلب المراة ؟ حسنا .. سوف نرى

ثم تقدم نحوها ووقف امامها مباشرة ، وقال بلهجة آمرة :

ـ هلم معى ايتها الآنسة ..

▱

ويؤكد اللورد هنرى جود فى تاريخه ، انه وثب ليدافع عن روزاموند كاى رجل شهم فى مثل هذا الموقف ، ولكن رجال صقر البحر اطبقوا عليه وقيدوه وكمموا فمه

وعاد صقر البحر يقول لروزاموند بصرامة :

ـ هلم يا آنستى ..

وارسلت اليه نظرة تجمع بين الحقد والازدراء ، ثم اذا هى تختطف بسرعة البرق سكينا من فوق المائدة وترفع يدها لتغمدها فى قلبه لولا ان كانت يده اسرع منها ، فاذا هو يقبض على معصمها بقوة جعلت السكين تسقط من بين اصابعها

وندت عنها شهقة بكاء وياس ، واذا هى تسقط على صدره فى شبه اغماء ، واذا هو يحملها على كتفه ببساطة .. وقد تذكر فى تلك اللحظة آخر مرة اخذها بين ذراعيه على شاطىء البحر تحت اسوار القصر

ولكن شتان بين عناقه لها يومذاك ، وبين حمله لها الآن

وهتف برجاله :

ـ اسرعوا الى السفينة

واندفع هذا الطوفان من الرجال المغامرين الى الخارج ، وبنفس

السرعة التى جاءوا بها ، عادوا الى السفينة . وقبل أن ينحدر اوليفر الى الخليج ، وقف برهة على المرتفع الصخرى يمد البصر فى اتجاه قصر بينارو الذى شهد طفولته وصباه وجانبا كبيرا من شبابه ، واحس بالحنين الطاغى الى جنباته ورحباته ، ولكنه خشى أن يضيع فى تحقيق هذا الامل وقتا يعرض رجاله للخطر

وفى تلك اللحظة اقبل احد ضباطه ، وهو المدعو عثمانى ، وقال له :

ـ ان فى هذه القرية القريبة عددا كبيرا من الشبان والشابات ولا شك ..

فلماذا لا نهاجمها ونأسر منهم أكبر عدد ممكن ؟

فنظر صقر البحر اليه بحدة وقال :

ـ كيف تجرؤ على تقديم هذا الاقتراح الى يا عثمانى ؟ الا تعرف أن ابنـاء وطنى اعزاء على نفسى ، وانى ، ايا كانت الاسباب ، لا استطيع ان احمل منهم الأسرى ليباعوا فى سوق الرقيق ... يكفى ما لدينا الآن ، وهلم الى السفينة !

ولكن هذا الرد لم يكن ليسكت عثمانى الذى قال :

ـ هل جاء صقر البحر عبر هذه الاهوال البحرية لكى نختطف هذين المخلوقين اللذين لا يساويان فى سوق العبيد مائة جنيه ؟.. هل مثل هذه الاغارة البحرية جديرة باسم صقر البحر ؟ !

فرد صقر البحر عليه باقتضاب قائلا :

ـ دع صقر البحر يقرر بنفسه ما ينبغى ان يفعل

ـ ولكن لا تنس يا سيدى ماذا سنقول للباشا اسد الدين ؟ ماذا سنقول له حين نعود اليه بعد هذه الرحلة الطويلة ، وليس معنا غير اسيرين اثنين فقط ؟

ـ سأقول له ما يريد الله أن اقول

ومضى صقر البحر بحمله الخفيف الى السفينة ، وسرعان ما أصدر أمره بالابحار فورا . وما هى غير فترة قصيرة حتى اختفى كل اثر لهذه الاغارة الخاطفة ، وكأنما هبط رجالها من السماء كالصواعق ، ثم ارتدوا اليها ، دون أن يتركوا وراءهم أى اثر غير اختفاء ليونيل وروزاموند

وفى الصباح ، رقد صقر البحر فى مقصورته الخاصة يفكر فيما سيقوله لأسد الدين عند عودته بهذه الغنيمة الفاخرة التى لا تتلاءم قط مع مثل هذه الرحلة البحرية الخطيرة ، وكان أشد ما يهمه فى هذا الموضوع هو زوجة أسد الدين الحسناء التى كانت من جزيرة صقلية وكان لها دالتها على أسد الدين ، والتى كانت تحقد على صقر البحر أشد الحقد .. وسبب ذلك ما بلغه من مكانة سامية فى قلب زوجها

ولم يكن يدرى ، فى تلك اللحظة ، أن الأقدار كانت تدفع فى طريقه بغنيمة رائعة فى شكل سفينة هولندية ضخمة كانت فى طريق العودة الى هولندا محملة بكنوز الهند ، وما كاد شراعها الكبير يلوح فى الأفق البعيد ، حتى أصدر صقر البحر الامر لرجاله بمهاجمتها .. وما لبث أن دارت معركة رهيبة بين السفينتين

حاول رجال السفينة الهولندية أن يستخدموا مدافعهم الاربعة، ولكن قذائفها طاشت كلها عن الهدف .. وسرعان ما اشتبكت خطاطيف سفينة صقر البحر بالسفينة الهولندية ... وسرعان ما توثب رجاله المحاربون عليها ، وهو فى مقدمتهم مرتديا درعه وخوذته ، والسيف فى يده يشق به الطريق أمام رجاله

وادرك المحاربون الهولنديون ان الامل الوحيد فى النصر هو نجاحهم فى القضاء على هذا العملاق الذى يقود رجاله .. صقر البحر ، ومن ثم تكاتفوا عليه ، واستماتوا فى الاحاطة به ، واستطاع احدهم أن يفتح ببلطته ثغرة فى جنب صقر البحر ويصيبه بجرح خطير .. ولكن صقر البحر تحامل على نفسه وظل يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال وهو يهلل مكبرا ، حتى رأى أخيرا أن المعركة انتهت بفوز رجاله

وعندئذ سقط مغشيا عليه ..!

وحمل الى مقصورته وهو بين الموت والحياة ، وتقدم طبيب مغربى بارع كان يرافق السفينة وفحص الجرح ، ثم اعلن خطورته، ولكنه قال ان الشفاء ممكن اذا لم يصب بالحمى

ولكنه أصيب بالحمى فى اليوم التالى ، وظل بين الموت والحياة حتى اجتازت السفينة مضيق جبل طارق ، وبعد ذلك هدأت وطأة

الحمى ، واسترد صقر البحر وعيه المفقود ، وبدأ يتماثل للشفاء

ولما اصبح فى حالة يستطيع معها ان يعرف كل ما حدث ، اقبل عليه عثمانى ، وهناه بسلامة النجاة من الموت ، واكد له ان بعض الفضل فى نجاته يرجع الى صلوات ودعوات رجاله له بالشفاء

ثم راح يخبره بالغنائم الموجودة فى السفينة الهولندية التى تتبع سفينة صقر البحر بقيادة ضابطه على شمس الدين . ولما علم صقر البحر بقيمة هذه الغنائم ، خفق قلبه سرورا ، وأدرك أن رحلته هذه البحرية الخطيرة لم تذهب عبثا !

فعدا مائة اسير هولندى ، كانت السفينة محملة بالذهب والفضة واللؤلؤ والعنبر والعاج والمنسوجات الحريرية المطرزة التى لم يشهد لها العالم الاوروبى مثيلا

وسأل صقر البحر بعد ذلك عن الأسيرين الانجليزيين الشاب والفتاة ، فقال له عثمانى انه يتولى حراستهما ، ويعاملهما نفس المعاملة التى اوصى بها صقر البحر ، وانهما فى أمان

وتنهد صقر البحر فى ارتياح ، واغمض عينيه ليعود الى النوم والراحة ، بينما كان رجاله فى انحاء السفينة يكبرون ويهللون حامدين الله على نجاته ، وعلى شفائه

mersalli

الفصل السادس

أسد الدين

كان اسد الدين ، والى الجزائر ، يتمشى فى حديقة قلعته «القصبة» الواقعة فى اعلى مكان بالمدينة ، والمطلة على البحر من بعيد . وكانت تسير بجانبه فى سحر وفتنة زوجته الايطالية ـ الصقلية المولد ـ فضيلة ، وهى التى حملها بنفسه قبل ثمانية عشر عاما من قريتها الصغيرة عبر مضيق سينا ، وعاد بها الى عرينه لتكون زوجته الاولى

وكانت وهى فتاة فى السادسة عشرة من عمرها .. ذات جمال فتان ، ولكنها ازدادت جمالا ونضجا وفتنة ، وهى فى الرابعة والثلاثين من العمر . وأهم من هذا انها عرفت كيف تأسر قلب زوجها وتحتل المكانة الاولى فيه .. بشخصيتها القوية ، ورفضها ان تكون مجرد لعبة بين يديه

ولكنها فى الوقت نفسه كانت تدرك الخطر الذى يكمن لها ، لو انها اسرفت فى فرض ارادتها على زوجها .. ولهذا كانت تلجأ الى الحيلة والملاطفة والملاينة حينا ، والى الجرأة والتحدى حينا آخر ، حسبما .. تقتضى الظروف ذلك

وها هى ذى الان تسير بجانب زوجها تحت اشجار البرتقال ، وفى الجو العاطر بشذى ازهاره ، تقول له بصوت ناعم ، ولكنه ملىء بسموم الحقد على صقر البحر خوفا من ان يصبح هو الوالى على الجزائر بدلا من ابنها بعد وفاة اسد الدين :

ـ قلت لك يا نبع حياتى انه يستهين بك !

فقال لها فى غضب :

ـ وانا قلت لك ان هذا ليس شأنك

ـ أوه يا سيدى الحبيب ! لماذا تغضب منى كلما حـــدثتك عن مطامع صقر البحر ؟

ـ لانى أريد منك ان تحدثينى عن أعماله المجيدة ، وانتصاراته العظيمة التى أرهب بها اعداء الاسلام فى كل مكان

ـ وما له هو وللاسلام يا مولاى ؟!

فتوقف أسد الدين فى غضب ، وقال لها بصوت صارم :

ـ اتقولين هذا لانه كان ـ مثلك ـ مسيحيا ؟

ـ لا .. اننى الان من أشد المسلمين ايمانا ، وان اعمالى كلهـا تشهد بهذا . ولـكن انظر الى اعماله هو ! انظـر الى انفـاق مال المسلمين فى شراء الاسرى الانجليز واطلاق سراحهم !

وصمت أسد الدين برهة لانه كان يشعر ببعض القلق من هذه الناحية فعلا .. الا انه لم يلبث ان قال :

ـ لا تنسى انه يقدم لنا عشرة من الاسرى الاخرين مقـابل كل اسير انجليزى يطلق سراحه

ورن صوت « فضيلة » بالسخرية ، وهى تقول :

ـ اذن ما رايك فيما حدث فى رحلته الاخيرة ؟

ـ لقد علمت انه جاء منها بأكثر من مائة اسير هولندى وبكنوز لم تشهد لها العين مثيلا

ـ اننى يا نور حياتى لا اتحدث عن هذه الغنائم التى ساقتهـا الاقدار اليه عفوا ، وانما اشير الى هذه الرحلة البحـرية الخطيرة التى عرض فيها حياة اكثر من مائتى محارب مسلم للخطر ، لكى يذهب فقط لرؤية بلاده التى ولد فيها .. فهل حدث يوما انى طلبت منك ان ارى بلادى ؟

فقال أسد الدين فى غضب :

ـ اقصرى لسانك ايتها الشيطانة عن اشجع واخلص قائد بحرى فى العالم العربى

وفى تلك اللحظة ، شاهدا ابنهما مرزاق مقبلا نحوهما .. وكان شابا طويلا فى السـابعة عشرة من عمـره ، وسيم الوجه ، ازرق العينين كأمه ، ولكنه ملوح البشرة مثل أبيه

وقالت « فضيلة » ، وقد ارتسم الحنان والحب فى عينيها :

ـ ها هوذا ابنك يا أبا مرزاق ..

ـ اجل يا ام مرزاق ..

ـ وابن الرجل يجب ان يكون توام روحه .. ومع ذلك فان مكانة ذلك اللعين الماكر صقر البحر فى قلبك تعلو على مكانة ابنك. الم يكن الاجدر ان يكون ابنك هو ساعدك الايمن بدلا من ذلك الاجنبى الدخيل ؟

ـ وهل يستطيع مرزاق ان يحل محل صقر البحر ؟ هل يستطيع ان يقود الرجال الى النصر ، او يرفع راية الاسلام عالية كما يرفعها صقر البحر ؟

ـ اذا كان صقر البحر يفعل هذا يا سيدى وملاكى فانما يفعله بفضلك ، وبفضل توجيهاتك وارشاداتك .. فانت الذى صنعته ، ويمكنك اذا شئت ان تصنع ابنك مرزاق ايضا !

ـ انك مخطئة فى هذا حقا يا ام الخطيئة .. لان الذى صنع صقر البحر هو الله .. انه من صنع الخالق .. الم تعلمى بعد أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يقول للشىء كن .. فيكون !

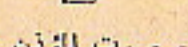

وفى تلك اللحظة ارتفع صوت المؤذن يدعو الى صلاة العشاء ، فانسحبت « فضيلة » الى خدرها الذى يطل ، من نافذة ذات ثقوب زخرفية « مشربية » على الحديقة ، ومضى اسد الدين الى الصلاة .. فلما فرغ منها ، اتخذ مجلسه فى الايوان الخاص به ، والذى يحتل ركنا من الحديقة ، مفروشا بالسجاجيد الفاخرة والوسائد الحريرية المحشوة بريش النعام

وفيما هو جالس يتامل نجوم السماء ويسبح بحمد الله ، اذا بوزيره طازمانى يقبل بملابسه الفاخرة ، يحف به عشرة من العبيد الحاملين المصابيح ، واذا مرزاق يقف فى مكان يستطيع منه أن يسمع كلّ ما يجرى من حديث بين أخيه ووزيره

وقال الوزير بعد ان قدم فروض التحية والولاء :

ـ لقد وصلت الى الميناء بحمد الله سفينة صقر البحر ، أعزه الله ... والسفينة الاخرى التى وردت الانباء بانها كنز يطفو على سطح الماء

ـ الحمد لله والشكر له ..

ـ ولكن صقر البحر يرسل تحياته وولاءه الى مولاى مع الضابط عثمانى ، ويعتذر عن الحضور الليلة لانه كان مريضا بعد اصابته بجرح خطير فى المعركة الاخيرة . وسوف يسرد عثمانى على مسامعكم الشريفة كل ما حدث فى تلك الرحلة

ولما فرغ عثمانى من حديثه عن الرحلة ، وعن الوصول الى انجلترا ، وعن الاسيرين اللذين أخذهما صقر البحر الى السفينة وعن السفينة الهولندية التى التقوا بها اثناء العودة ، وعن المعركة التى دارت فى عرض المحيط وانتهت بالنصر المؤزر لصقر البحر .. بعد ان فرغ من هذا كله ، قال :

ـ وغدا يا مولاى سوف توضع كنوز هذه الغنائم عند قدميكم لتتصرفوا حسبما ترونه بحكمتكم الغالية

وكرر اسد البحر مرة أخرى الحمد لله والثناء عليه

ولما سمعت « فضيلة » بالقصة كلها ، غلت دماء الحقد فى عروقها ، ولكنها لم تلبث أن راحت بدهائها تقول لنفسها :

« لا شك أن هناك سرا دفع بصقر البحر الى ركوب أهوال هذه الرحلة الطويلة الخطيرة الى انجلترا لكى يعود منها بأسيرين فقط . ومن يدرى .. فربما كان فى هذا السر هلاكه ..

وبعد أن تحدثت مع ابنها مرزاق برهة ملأت خلالها قلبه بالمزيد من الحقد على صقر البحر ، طلبت منه أن ينصرف حين سمعت خطوات زوجها اسد الدين فى طريقه الى خدرها

وقال لها فى صوت ينم عن الزهو :

ـ لا شك انك سمعت القصة كلها .. لديك ما تقولينه بعد ذلك عن البطل صقر البحر ؟.. اجيبى !

فتراخت فى دلال امام مرآة من الصلب اللامع ، وأرسلت ضحكة ساخرة ممطوطة ، ثم قالت :

ـ نعم سأجيب يا نور حياتى .. سأجيب واقول ان هناك سرا خطيرا جعل صقر البحر يعرض حياة مائتى محارب من المسلمين لاشد الاخطار ، لكى يأسر اثنين فقط من ابناء وطنه .. بينما كان

فى مقدوره أن يأسر مائتين :
فقال هو بصوت ساخر ايضا :
ـ اهذا كل ما سمعته ؟
ـ سمعت ايضا انه اسر سفينة افرنجية اثناء العودة بطريق الصدفة وحدها !
ـ الصدفة وحدها ؟!
ـ نعم ! والا هل كان يتوقع ان يلتقى بهذه السفينة المليئة بالكنوز اثناء عودته . واذا كانت هذه السفينة هى الهدف الحقيقى .. فلماذا ذهب الى انجلترا وعرض رجاله للخطر ! لماذا لم يكمن لها فى اقرب مكان ؟!
وقطب اسد الدين جبينه ، وبدا انه استغرق فى التفكير ، وعندئذ راته « فضيلة » ان تنتهز هذه الفرصة وتزيد الشك فى نفسه :
ـ ان الحظ وحده هو الذى دفع بالسفينة الافرنجية فى طريقه لكى يبهر عينيك بكنوزها عن الهدف الحقيقى لرحلته الى انجلترا
فقال اسد الدين متسائلا :
ـ الهدف الحقيقى ؟ ما هو هذا الهدف الحقيقى ؟
فابتسمت فى خبث لتخفى جهلها بذلك الهدف ، وقالت :
ـ لا تسألنى يا مولاى ، لانك تستطيع بما أودعه الله فى عقلك من الحكمة والذكاء ان تعرف هذا الهدف .. أم ان سحر ذلك الشيطان الاجنبى قد وضع الغشاوة على عينيك ؟!
فانقض اسد الدين عليها ، وامسك بمعصمها فى قوة ، وقال هادرا :
ـ تحدثى ايتها الافعى بما تعلمين .. تحدثى والا امرت بجلدك .! فانى لم اعد احتمل اساليبك الزاخرة بالخبث والدهاء
فقالت فى تحد :
ـ انى لن اتحدث بشىء ولو مزقتنى اربا . لماذا لا تسأله بنفسك ؟
فالقى بها بعيدا عنه ، وهو يقول :
ـ اذن فانت كاذبة .. عليك اللعنة !
ولكنها كانت تعرف ان بذرة الشك التى غرستها فى نفسه قد استقرت فى النهاية

▭

فى هذه اللحظة كان صقر البحر يذرع ظهر سفينته جيئة وذهابا ،

وكان قد غادر فراش المرض قبل ذلك بيومين .. وذهب أول ما ذهب الى المقصورة المخصصة لروزاموند فى مقدمة السفينة . وهناك وجدها جالسة شاحبة الوجه ، ولكن دون أن تفقد شيئا من هذه الشجاعة التى ورثتها عن آل جودلفين . ووقف أمامها حائرا ، لا يدرى ماذا يقول .. وقد شعر فجأة بالندم على اختطافه لها . انه لم يكن ينوى أن يفعل هذا .. ومن ثم لم يدر لماذا تهور وحملها معه الى هذه البلاد النائية . وبعد أن ظل واقفا يعض على شفتيه فى حيرة وندم ، انثنى عائدا الى المكان الذى وضع فيه ليونيل .. وهناك رآه راقدا فى حالة من الفزع القاتل ، شاحب الوجه ، أحمر العينين ، مرهق السمات ، كأنما يتوقع الموت فى أية لحظة

ولم يتحدث معه بشىء أيضا ..

ـ وهاهو ذا ، فى ليلة وصوله الى ميناء الجزائر ، يذرع سطح السفينة جيئة وذهابا فى ضوء القمر . وفجأة رأى شبح رجل يقترب منه ، ثم سمع صوت الكابتن لاى ، وهو يقول له بالانجليزية :

ـ سير اوليفر ؟

ـ تقدم .. قلت لك مرات عديدة أننى لم أعد السير اوليفر . فاما أن تنادينى باسم اوليفر ـ ريس ، أو صقر البحر . والان ماذا تريد ؟

ـ أترى أننى خدمتك باخلاص ؟

ـ وهل أنكرت أنا هذا ؟

ـ لا .. ولكنك أيضا لم تعترف باخلاصى فى خدمتك . لقد كان فى مقدورى أن أقود هذه السفينة ، والاخرى المحملة بالكنوز الى اى ميناء أوروبى أثناء مرضك . نعم .. كان هذا فى مقدورى بحق الله

ـ لو أنك فعلت شيئا من هذا القبيل ، لزقك رجالى اربا قبل أن تضع قدمك على الشاطىء !

ـ ألم يكن فى مقدورى أن ألقى بنفسى فى الماء عندما اقترب من اية بقعة على الشاطىء الاوروبى ؟

فقال صقر البحر ساخرا :

ـ نعم ... لكى تقع مرة اخرى بين ايدى رجال التفتيش

الكاثوليك ، ولكننى لا أنكر على كل حال انك اخلصت فى خدمتى ، ووفيت بوعدك ، وانا حريص على الوفاء بوعدى لك

ـ لقد وعدت بارسالى الى الوطن مرة أخرى

ـ اجل ..

ـ ولكن هل بقى لمثلى وطن أعود اليه ؟ ان ابنـاء وطنى اذا لم يعلقونى فى مشنقة ، فسوف يطردونى من ارضهم ، ومن ثم أعود هائما على وجه البحار مدى الحياة

ـ اذن ماذا تريد منى ان افعل ؟

فقال الكابتن لاى بعد برهة صمت :

ـ اريد اولا ان الوذ بظل الايمان ، اننى لم اعد أطيق العـودة الى هؤلاء الذين لا يعرفون عن المسيحية الا اسـمها ، اريد ان اعتنق دينا يجعلنى أشعر براحة النفس ، والايمـان المطلق بالله واحد قادر على كل شىء ، وان الفترة التى عشتها بينكم جعلتنى اومن تماما ان الاسلام هو الدين الذى ينبغى ان اعتنقه

ـ اتريد حقا أن تدخل فى دين الاسلام ياكابتن لاى ؟

ـ نعم .. وسـوف اضع كل خبرتى الملاحية فى خدمة هـذا الدين

ـ انك اذا دخلت دين الاسلام فلن تذوق قطرة من الخمر او قطعة من لحم خنزير

فهز الكابتن لاى كتفيه ، وقال :

ـ ان هناك اشياء كثيرة تعوضهما ..

وتأثر صقر البحر من حماسة الكابتن لاى ، فقال :

ـ حسنا .. ليكن لك ما تريد . والواقع انك تستحق الاعدام شنقا رغم كل الوعود التى بذلتها لك . ولكن ، حسنا .. انك بعد ان تغدو مسلما سـتكون واحـدا من رجالى العاملين بجانبى ، وطالما بقيت على اخلاصك ، فسـوف تكون بمأمن من عاديات الزمن ، اما اذا بدرت منك اية بادرة تنم عن الغدر ، فسوف يكون الموت الرهيب مصيرك

وانحنى الكابتن لاى على يد صقر البحر ، وقبلها بحرارة قائلا :

ـ لقد عفوت عنى وكان فى مقدورك ان تعدمنى .. ولهذا فانى اضع حياتى بين يديك .. وهى وان كانت تافهة ، فربما تنفعك يوما ما !

وازداد تأثر صقر البحر بما تنطوى عليه كلمات الكابتن لاى من حرارة الاخلاص ، فلم يسعه الا أن يبسط اليه يده ويصافحه بقوة

mersalli

الفصل السابع

الشيطانة الأفرنجية

بلغ عدد الجمال التى استخدمت فى نقل كنوز السفينة الهولندية الى قلعة القصبة أربعون جملا ، وقد سارت هذه الجمال بتقدمها مائة من البحارة المغامرين ، ويتبعها مائة آخرون، وفى مقدمة الجميع صقر البحر وضباطه على متون جياد عربية أصيلة .. أما الاسرى ، فكانوا فى المؤخرة

وعلى طول الطريق ، كان الرجال فى المدينة من مختلف الاجناس واقفين على الجانبين يشاهدون هذا الموكب الرائع ، ويهتفون لصقر البحر ، البطل المغوار ، وكاسر شوكة اعداء العرب فى كل مكان

وظل الموكب يصعد فى الطرقات الضيقة المتعرجة حتى بلغ شوق المدينة . وهناك انقسم الى قسمين ، احدهما برئاسة الضابط عثمانى الذى قاد الاسرى الى رحبة العبيد .. بينما استمر القسم الآخر ، أى الجمال والمحاربون فى طريقهم الى القلعة المنيفة

وكان الباشا أسد الدين من مكانه المختار بالقلعة ، يطل على هذا الموكب بوجه مقطب .. ذلك أن بذرة الشك التى غرستها فضيلة فى قلبه كانت قد نبتت انماء الليل ، واقلقت مضجعه ، وجعلته ينظر بفارغ الصبر وصول صقر البحر ليعرف منه الهدف الذى جعله يقوم بتلك الرحلة الخطيرة الى بلاده

وترجل صقر البحر عن جواده عند بوابة القلعة ، وسار نحو مجلس أسد الدين على قدميه ، مرفوع الراس ، مهيب السمت ،

يليه حارسان خاصان ، هما على والكابتن لاى بعد ان اعتنق الاسلام فى الليلة السابقة ، وعند أولى درجات الديوان ، كب صقر البحر امام اميره ، ثم حياه بقوله :

ـ سلام الله وبركاته عليك يا مولاى !

وانحنى أسد الدين ، واستقبل صقر البحر بالعناق الحار مما جعل فضيلة ، التى كانت تختلس النظر من مشربيتها ، تعض على شفتيها من فرط الحنق والغضب

وقال أسد الدين :

ـ نحمد الله ورسوله على عودتك الينا سالما يا ولدى ، وعلى هذه الانباء التى اسعدت بها قلوبنا جميعا ، وعلى انتصاراتك التى رفعت بها راية الدين عالية

ثم تلا ذلك عرض الكنوز والغنائم التى كانت فى السفينة الهولندية . واخيرا امر أسد الدين عثمانى ان يحملها الى بيت المال ويسجلها فى دفاتر الغنائم ، لتوزع على الجميع ، كل بنصيبه .. ذلك ان اسد الدين كان يتبع قواعد الدين فى تقسيم الغنائم بين المستحقين كل حسب نصيبه . وكان نصيب صقر البحر يبلغ واحدا على اثنى عشر جزءا منها

ولم يبق فى المجلس الا اسد الدين ومرزاق وصقر البحر وبعض الحراس وعلى والكابتن لاى الذى قدمه صقر البحر للوالى باعتباره واحدا من الذين عداهم الله الى دينه الحنيف ، قائلا انه قرر ان يكرس مواهبه وخبرته فى الملاحة البحرية لخدمة الاسلام

وعندئذ تدخل مرزاق قائلا : « ان الذين دخلوا الاسلام من الاديان الاخرى قد اصبح عددهم كبيرا ، وان فى هذا خطرا كبيرا ، لان الانسان لا يستطيع أن يجزم هل هم مهتدون حقا أو جواسيس ماجورون »

ورمقه صقر البحر بنظرات كلها الاحتقار والدهشة ، ثم قال :

ـ اتقول انه ليس من الحكمة ان نقبل عددا كبيرا من الذين يريدون الهداية والايمان واعتناق الاسلام ؟.. اذهب واقرأ كتاب الله الكريم لتعلم منه كيف ينبغى على كل مسلم ان يفرح ويسعد بكل من تشاء ارادة الله ان تهديه الى سواء السبيل .. نعم يا ابن اسد

الدين .. فليس من الحكمة فى شىء ان تحتقر الذين هداهم الله الى دينه ، ولا أن ترتاب فى اخلاصهم الا اذا كان هناك ما يدعو الى هذا الارتياب

ولم يسع مرزاق الا أن يسكت على مضض وغضب وانهزام ؛ بينما ابتسم اسد الدين ابتهاجا ، وقال لصقر البحر :

ـ ما أشد اخلاصك لدين الله يا ولدى ، وما أسعدنا بك .. انك حقا رب السيف والحكمة ..

ثم استقبل الكابتن لاى ورحب به فى دين الله ، واطلق عليه اسم لاى ـ ريس

وبعد ذلك انصرف الكابتن لاى وزميله على ، وتبعهما حراس اسد الدين . ثم صفق الباشا وامر بعض العبيد بان ياتوا بالطعام .. ثم طلب من صقر البحر أن يجلس بجانبه على الايوان

وغسل الجميع ايديهم اولا بالماء المعطر بماء الورد ، ثم قدم اليهم حساء اللحم ، والبيض ، والزيتون ، وبعض الخضر والليمون وشرائح من اللحم مع الخبز

وبدأ اسد الدين الطعام قائلا « باسم الله » وتبعه صقر البحر ومرزاق .. واثناء تناولهم الطعام ، راح صقر البحر يسرد قصة رحلته على مسامع اسد الدين وابنه

ولما فرغ من حديثه ، اثنى عليه اسد الدين اطيب الثناء ، ولكن مرزاق وجه اليه هذا السؤال :

ـ لأجل هذين الاسيرين الانجليزيين قمت بهذه الرحلة البحرية الطويلة التى تعرضت فيها انت وجنود الاسلام لاهوال البحر الكبير ؟

فرد صقر البحر بهدوء :

ـ كان الذهاب الى انجلترا مجرد جزء من هذه الرحلة التى قمت بها لأجوب البحار الواسعة بحثا عن سفن الاعداء . وقد ثبت بالدليل انى كنت موفقا فيها أبعد توفيق

فقال مرزاق مرددا كلمات امه التى لقنته اياها :

ـ انك لم تكن تعلم سلفا ان السفينة الهولندية سوف تعترض طريقك

فابتسم صقر البحر ابتسامة لها دلالتها ، ثم قال :
ـ أحقا ؟.. الم اذهب فى رحلتى وانا متوكل على الله القادر على كل شىء ؟

وقال اسد الدين مبتهجا :
ـ أحسنت الاجابة يا ولدى صقر البحر

ولكن مرزاق لم ينهزم ، لان الاسئلة التى تلقاها عن امه الصقلية لم تكن قد فرغت بعد ، ومن ثم قال بصوت لين :
ـ اخبرنى يا صقر البحر .. كيف حدث بعد ان وصلت الى تلك البلاد النائية ان اكتفيت باسيرين باسمين ، بينما طلب منك عثمانى أن تأسر ما لا يقل عن مائتى شاب وفتاة .. وكان ذلك فى مقدورك بكل بساطة

ولم يسع صقر البحر عندئذ الا ان يلجا الى المراوغة فى الاجابة، حتى لا يدخل فى مناقشات تفصيلية لم يكن ذلك مجالها ... فقال :

ـ لقد انتزعنا الاسيرين من اول قصر وجدناه فى طريقنا . وكان الباقون فيه عجائز لا يصلحون للبيع فى الاسواق . وكان الوقت ليلا ، وقد خشيت على حياة رجالى أن تتعرض للخطر اذا انا قمت باغارة ثانية قد تؤدى الى تاليب اهل البلاد ، وقطعهم خط الرجعة علينا

ولكن وجه اسد الدين تجهم ازاء هذه الاجابة الضعيفة ، ثم ازداد تجهما حين قال مرزاق :
ـ ومع ذلك فقد لح عثمانى عليك ثلاث مرات أن تغير على قرية هاجعة .. ولكنك رفضت باصرار

ونظر اسد الدين بحدة الى صقر البحر الذى احس بحرج موقفه ، وشعر كأن يدا باردة تعتصر قلبه .. وقال اسد الدين فى صوت كالزئير :
ـ أحدث هذا ؟

وقال صقر البحر ، وهو يحاول السيطرة على اعصابه :
ـ وماذا لو كان قد حدث هذا يا مولاى ؟
ـ انى اسالك : هل حدث هذا ؟

ـ وانا بدورى اعتمد على حكمتك يا مولاى واصالة رايك .. هل عثمانى كان قائد هذه الرحلة ، وهل كان المفروض ان اتلقى منه الاوامر والتوجيهات ؟ واذا كان هذا ما ينبغى ، فالافضل ان يحل محلى ، وان يتولى قيادة قوافل البحرية ، وان اعمل انا تحت امرته !

فقال أسد الدين عاتبا ، وهو لا يزال متجهم الوجه :

ـ لقد اسرعت فى الغضب يا صقر البحر

ـ وكيف لا اغضب ، بحق الله ، وانا اجد نفسى موضع استجواب لشاب حدث ، لم يركب البحر فى حياته بعد أن عدت من رحلتى محملا بكنوز وغنائم لم يظفر بمثلها احد فى سنة كاملة ؟

ثم نهض واقفا بقامته الطويلة وسمته المهيب ، واردف قائلا وقد قرر ان يحطم فى تلك اللحظة كل شك فى سلوكه :

ـ لو ان رحلتى انتهت بكارثة .. فهل كان عثمانى هو الذى سيتحمل النتائج ؟ وهل كان عثمانى هو الذى دفع بالسفينة الهولندية فى طريقى ؟ وهل كان عثمانى هو الذى جاء اليوم بهذه الكنوز التى لم تشهد لها البلاد مثيلا من قبل ؟ اننى اتساءل وانا مطمئن الى عدالتك يا مولاى

وشحب وجه مرزاق امام هذه الثورة العارمة ، وهدات ثائرة أسد الدين ، وقد ادرك انه تمادى فى سوء الظن باخلص واحب قائد الى قلبه ، ومن ثم قال فى صوت لطيف :

ـ اجلس يا صقر البحر .. يبدو اننا لم ننصفك كما ينبغى

فجلس صقر البحر ، وقال بصوت كله الرقة والخضوع :

ـ بل انت نبع العدالة والانصاف يا مولاى . ولهذا سوف اعترف لك بالحقيقة كاملة .. فعندما وجدت نفسى قريبا من أرض بلادى ، رأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأسوى الحساب مع عدو لى قديم كان قد اصابنى بضرر بالغ ، ويبدو انى تجاوزت حدودى فأسرته وأسرت معه شخصا آخر ، وهذان الاسيران ليسا الآن مع الاسرى الباقين ، وانما هما لا يزالان على سطح السفينة

فقال أسد الدين بصوت خلا تماما من الشك :

ـ ولكن لماذا ؟

وقرر صقر البحر أن ينتهز هذه الفرصة ويحقق رغبته من اسد الدين ، فقال بلطف

ـ لان لى التماسا أرجو أن تحققه لى كمكافأة عن بعض خدماتى

ـ أطلب ما تريد يا ولدى

ـ أرجو ان تسمح لى بالاحتفاظ بهذين الاسيرين لنفسى

فقطب أسد الدين جبينه .. ذلك انه على الرغم من حبه لصقر البحر ، ورغم تقديره لشجاعته واعجابه باخلاصه ، الا أن سم فضيلة كان يسرى فى عقله . ومن ثم قال :

ـ انى اسمح لك بما تريد.. ولكن بشرط الا تخالف القوانين. يجب اولا أن تعرض الاسرى جميعا للبيع فى السوق غدا ، كما هو التقليد المعتاد . ويمكنك أن تشترى من تشاء منهم بالثمن الذى سيقرر فى السوق بالمزايدة . والا فسوف يقال عنا اننا نحتفظ لانفسنا بما نشاء من الغنائم

ـ ولكنك يا مولاى فوق القانون

ـ لا يا ولدى .. ان الحاكم الذى لا يحترم القانون ، سوف يروح ضحية قانون آخر أقوى منه . وعلى هذا يجب أن تعرض الأسرى جميعا ، وبلا استثناء ، غدا فى سوق العبيد . وعليك انت أن تشرف على تنفيذ هذا الامر

ـ سمعا وطاعة يا مولاى

وبقلب ملىء بالألم والحيرة ، أصدر صقر البحر أمره بحمل ليونيل وروزاموند الى رحبة العبيد ، ولكنه طلب أن يوضعان فى مكان خاص بعيد عن مجموع الاسرى

وبقى مرزاق مع اليه برهة حتى انضمت اليهما فضيلة .. تلك المرأة التى كان أهل البلاد يسمونها بومذاك الشيطانة الافرنجية

الفصل الثامن

نظرة الحب

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى ، بعد أن فرغ مؤذن الفجر من ترنيماته الدينية الاخيرة ، أقبل بسكاين ـ البراق الى الباشا .. وقال له أنه جاء من فوره بعد أن هبط فى الميناء بسفينته التى أسرت فى الليلة السابقة سفينة صيد أسبانية . وقد وجد على هذه السفينة شابا من الذين أرغمتهم السلطات الدينية فى أسبانيا على تغيير دينهم الاسلامى واعتناق الديانة الكاثوليكية ، وكانت هذه السلطات قد خيرته ، هو وأخوه ، بين الموت حرقا أو الخضوع لأوامرها .. وآثر أخوه الموت ، أما هو فاضطر الى الخضوع ريثما يجد مجالا للفرار

وقال بسكاين ـ البراق ان هذا الشاب الموريسكو « وهو الاسم الذى كان يطلقه الاسبانيون على الذين يرغمونهم على اعتناق ديانتهم » له ابن عم مسيحى فى ظاهره ، مسلم بقلبه ، يعمل فى وزارة الخزانة الاسبانية بمدينة ملقا وأنه عرف ـ بحكم منصبه ـ أن سفينة أسبانية مسلحة سوف تحمل كميات ضخمة من العملة الذهبية ، هى مرتبات الحامية الاسبانية المرابطة فى مقاطعة نابلى الايطالية . وقد صدرت الاوامر بأن تمضى السفينة بلا حراسة للتغرير والتضليل ، ولكن بشرط أن تلتزم المياه القريبة من الشواطىء الاوروبية . وقال الشاب « الموريسكو » ان السفينة سوف تبحر فى خلال أسبوع ، وأنه من ثم انتهز أول فرصة وهرب بسفينة صيد أسبانية لكى يبلغ السلطات الجزائرية عن هذه الغنيمة

ولما قدم بسكاين ـ البراق الشاب « الموريسكو » الى أسد الدين

ليذكر له الخبر بنفسه ، شكره أسد الدين وأجزل له العطاء وأمر برعايته ، ووعده بأن يكون له نصيبه المقرر فى هذه الغنيمة عند الاستيلاء عليها

▱

وبعد هذا أرسل الوالى فى طلب صقر البحر ، بينما أسرع مرزاق، الذى كان حاضرا هذه المحادثة ، ليخبر أمه بما سمع

وثارت الام ثورة عارمة حين أدركت أن كل مابذلته لتسميم الجو بين زوجها وصقر البحر قد ذهب سدى ، وأن زوجها سوف يكلف عدوها اللدود بمهمة أخرى تزيد من شهرته ، وتضاعف حب الناس له ، وتؤكد مكانته فى قلب زوجها

واندفعت ، وهى فى سورة غضبها ، ومرزاق وراءها ، الى حيث كان أسد الدين جالسا ، وصاحت بصوت فيه من التحدى والقوة ما ادهش زوجها :

ـ ما هذا الذى سمعت يامولاى ؟.. هل حقا ستكلف صقر البحر بالاستيلاء على سفينة الذهب الاسبانية ؟

فتراخى أسد الدين فى مقعده ، وقال متهكما :

ـ هل تعرفين أحدا أصلح منه للقيام بهذه المهمة ؟

ـ نعم .. أعرف واحدا أرى أن من واجب مولاى العناية به وتكليفه بمثل هذه الاعمال الجليلة التى ترفع من قدره بين الناس جميعا . انه ابنك .. ابنك الذى لم يستطع حتى اليوم أن يكون له أى نصيب فى الغنائم التى امتلأ بها بيت المال .. ابنك الذى تحرمه من السير فى نفس طريق المجد الذى سرت فيه

فقال أسد الدين وهو يتنهد :

ـ اللهم صبرا على هذه المرأة السليطة .. ألم أقل لك انه لايزال حدثا :

ـ لقد كنت ، وأنت فى مثل سنه ، قائدا بحريا مشهورا

ـ كنت وأنا فى مثل سنه ، وبفضل الله ، أطول قامة منه ، وأقوى جسما ، وأصلب عودا ، ومدربا على ركوب البحار منذ كنت فى العاشرة من عمرى .. انه يعز على أن ألقى بابنى فى هذه المغامرات قبل أن يشاهب لها

ـ وكيف يتأهب لها وهو يعيش هنا منعما بين الحدائق والجوارى انظر اليه يا مولاى .. الا تراه قد أصبح رجلا تزهو بمثله كل أم ؟.. الم يحن الوقت بعد لكى يمسك بالسيف ، ويقود الرجال ؟

وقال مرزاق فى ابتهال :

ـ أجل يا أبى .. أتوسل اليك

فصاح أسد البحر غاضبا :

ـ ماذا تقول يا ولدى ؟ أية خبـرة لك تجعلك تقف فى مواجهة المغامرين الاسبان ؟

فقالت فضيلة :

ـ لسوف يكتسب الخبرة اذا أتحت له مثل هذه الفرصة

فصمت أسد الدين برهة ، ثم قال ببطء :

ـ حسنا .. ليكن لك ماتريدين .. لسوف تذهب فى هذه الرحلة مع صقر البحر

فصاحت فضيلة فى استنكار :

ـ مع صقر البحر ؟

ـ وهل هناك من هو افضل منه لتعليم مرزاق فنون القتال ؟

ـ أترسل ابنك ليكون خادما لمثل هذا الاجنبى اللعين ؟

ـ بل ليكون تلميذا

ـ لو كنت انا رجلا يا مليك حياتى ، وكان لى ابن مثل مرزاق ، لتوليت بنفسى تعليمه وتدريبه .. لكنت أنا القدوة والمثـــال . التمس منك يامولاى الا تعهد بابنك الى أحد غيرك ليتولى تدريبه وتعليمه .. تول أنت قيادة هذه الحملة واجعل مرزاق ضـــابطك الاول

وقطب أسد الدين جبينه ، وقال ، :

ـ انني لم أعد فى قوتى وشبابى . لقد تجاوزت الخمسين من العمر ، ولا شك انى نسيت فن النصر بعد ان امتنعت عن ركوب البحر عامين كاملين .. لا ، لا ..

وقبل أن ترد عليه ، أقبل أحد العبيد وأعلن لاسد الدين أن صقر البحر فى رحبة القصر ينتظر الاذن بالمقابلة

وانسحبت فضيلة بسرعة ، واقبل صقر البحر .. وتبادل مع

الوالي النحية فى مودة ، وبعد أن ذكر له أسـد الدين ما سمعه عن السفينة الاسبانية المحملة بالذهب ، سأله قائلا :

ـ متى يمكنك العودة الى البحر مرة أخرى ؟

ـ عندما يشاء الله يامولاى ..

ـ أحسنت الرد ياولدى .. واقترح أن تبدأ الرحلة غدا مع شروق الشمس

ـ اذن اسمح لى بالعودة الى الميناء لكى أصدر أوامرى بالاستعداد لهذه الغزوة

ـ أية سفينة ستركبها فى هذه الغزوة ؟

ـ أقترح أن أركب سفينتى الخاصة ، فهى التى يمكنها مواجهة السفينة الاسبانية فى أى مكان بالبحر . هذا فضلا عن سرعتهـا واعدادها لتكون قادرة على المرور فى أضيق المناطق والاختباء بها

ـ فقال أسد الدين :

ـ أجل .. انك تجمع بين الحكمة والشجاعة ، وأسأل الله أن يجعل النجاح حليفك فى هذه الغزوة

ـ هل تأذن لى بالانصراف ؟

ـ انتظر لحظة .. ان ابنى مرزاق كما تعلم يقترب من الشباب والرجولة ، وقد آن له أن يتدرب ليخدم دينه وبلاده . ولى رغبة فى أن تأخذه معك فى هذه الغزوة ليكون تلميذك ومساعدك

وأخفى صقر البحر ما شعر به من ضيق وأستياء ، ثم قـال بسرعة :

ـ بل أقترح ياموﻻى أن تتولى أنت قيادة هذه الغزوة ، وأن أقف بجانبك كما كنت افعل فى الايام الماضية .. اذ ليس هناك من يصلح لان يكون قدوة حسنة لمرزاق مثلك

ـ أأنت ترى هذا أيضا ؟

ـ وهل هناك من رأى هذا غيرى ياموﻻى ؟

ـ نعم ، نعم .. وانك وحق الله تغريني

ـ وأكثر من هذا ياموﻻى

ـ لا .. لا .. ليس هناك أكثر من هذا . لقد أصبحت كالاسد العجوز . فهل يمكن للاسـد العجوز أن يطارد غزالا .. لا .. لا ياولدى

اذهب باينى مرزاق وعد بسالما ..
ـ اذا لم أعد به سالما ، فلن أعود أنا أيضا
ـ بارك الله فيك يا ولدى ، اذهب واستعد للغزوة

فى ضحى اليوم نفسه كانت الاستعدادات قائمة فى سوق العبيد لاجراء عمليات البيع عن طريق المزايدة . وكان الاسرى من مختلف الاجناس ـ نساء ورجالا وشبابا ـ قد اجتمعوا فى جانب من السوق تحت المظلات والظلل المختلفة ، بينما انسدلت ستارة على ظلة جلس تحتها ليونيل مقيد اليدين والقدمين ، وبجانبه جلست روزاموند فى ثوبها الابيض الثمين

وفيما كان السوق الكبير يموج بالبائعين والشارين والدلالين والمتفرجين ، اذا بالنبأ ينتشر بان أسد الدين ، الباشا ، اقبل على السوق فى حاشيته ، فافسح له الجميع الطريق .. واذا هو يقبل على بغلة بيضاء ناصعة ، وبجانبه وزيره طازمانى ومن ورائهما بعض الحراس

وصاح رجال الحرس فى السوق :

ـ افسحوا الطريق للوالى .. افسحوا الطريق للباشا

وتحولت عبارات السباب والشتائم التى كانت تملأ الافواه فى السوق الى هتافات المديح للباشا والدعاء له بطول العمر

وترجل الباشا أسد الدين عن بغلته ـ بحكم القانون والتقاليد ـ واصبح داخل السوق كأى فرد من أفراد الشعب ، له نفس الحقوق ، وعليه نفس الواجبات .. لا يستطيع أن يشترى عبدا أو جارية أو شيئا الا بالثمن الذى يرسو على مندوبه

وطلب من الضابط على ، الذى كان حارسا على الاسرى الذين جاء بهم صقر البحر فى غزوته الاخيرة ، أن يدعه يفحص الاسرى لكى يطلب من مندوبه المزايدة على من يريد منهم

وبعد أن فرغ من عملية الفحص ، كأى مشتر عادى ، لفت نظره الستار المسدل على الظلة التى يجلس تحتها ليونيل وروزاموند ، فأشار اليها قائلا :

ـ هل ثمة اسرى آخرون هنا ؟

ـ أجل يامولاى ٠٠ الاسيران اللذان جاء بهما صقر البحـــر من بلاده

ـ ارفع الستار

وما كاد الستار يرفع ، حتى وقعت عينا أسد الدين على روزاموند التى وقفت فى كبرياء وتحد ، وقد تضرجت وجنتاها بالدماء أمام نظرات الوالى الفاحصة

وتسمر أسد الدين فى مكانه وهو يرى أمامه لونا من الجمال لم يشهد له مثيلا من قبل ٠٠ ذلك أن روزاموند كانت فى الواقـــع انموذجا رائعا للجمال الانثوى الناضج ، مع اشراق الشباب فى عنفوانه

كانت فى وقفتها طويلة القامة ، مستوية القد ، ضامرة الخصر ، بارزة الصدر ، تكاد بشرتها تضىء جمالا ، ويكاد شعرها الذهبى الناعم المرسل على كتفيها يسطع بأمواج من الذهب ٠ وكانت ملامحهـــا الدقيقة ، وشفتاها الورديتان كلها تنطق بالجاذبية التى يخفق لها قلب الشيخ ، كما خفق قلب أسد الدين وهو يرنو اليها كانمـــا لايصدق عينيه

وتنهد أخيرا ، وقال للضابط على :

ـ دعها تتقدم نحوى

ولما تقدمت روزاموند فى كبريائها وتحديها ، مد أسد الدين يده ليلمس ذراعها البللورية ، وكأنما يريد أن يتأكد هل هى مخلوقة من لحم ودم ، أو من رحيق النور والازهار !

وجفلت روزاموند من لمسته ٠٠ ولكنه لم يبال ، وانما تنهد ، وقال مغمغما :

ـ تبارك الله فيما خلق

وأدرك طازماتى مايجول بخاطر سيده ٠٠ ولما كان بينه وبـين فضيلة الشيء الكثير من العداوة والبغضاء والحرب الخفية ، فقد قرر أن ينتهز هذه الفرصـــة ويضع بين يدى أسد الدين هذه اللؤلؤة الانثوية لكى تحل فى المستقبل محل فضيلة ٠ ومن ثم قال :

ـ لا شك أن العناية الالهية قد أرسلت هذه الحورية الآدميـــة اليك يا مولاى لتكون هدايتها الى دين الله على يديك

وقال أسد الدين وهو يشعر بدماء الشباب تعود ملتهبة فى عروقه :

ـ أجل أجل ياطازمانى .. صدقت . ان مثل هذا البهاء الآدمى لا يجب أن يهمل أو يوضع فى مكان آخر غير القصر

ووقف برهة يملأ عينيه بجمال روزاموند .. وفجأة استدار على عقبيه فى عنف حين سمع صوتا يقول وراءه :

هل سحرتك هذه الصفراء الكافرة الى هذا الحد ؟

ووجد نفسه فجأة أمام زوجته فضيلة التى كان جواسيسها قد أخبروها بأن فى سوق العبيد فتاة جاء بها صقر البحر ، وليس لها مثيل فى عالم الجمال . ومن ثم أسرعت وراء زوجها وهى تتوقع الخطر الذى يهدد مكانتها كزوجة أولى فى حريم أسد الدين . وهكذا أمكنها أن تسمع حديث عدوها اللدود طازمانى اليه ، ورد الباشا عليه

وترجلت فضيلة من المحفة التى كان يحملها الاغوات ، ووقفت تتحدى نظرات أسد الدين الغاضبة ، قائلة فى تهكم :

ـ اذا كانت هذه هى التى تقول الشائعات انها الجمال المجسم الذى جاء به صقر البحر من وراء البحار ، فيالضيعة الجمال .. اننى لا أرى الماثل الا فتاة شاحبة صفراء عارية الوجه ، كافرة !

واقترب أسد الدين من زوجته وهو يرتعد من فرط الغضب ، وقال :

ـ لقد تماديت فى غيك وفى تصرفاتك الافرنجية التى جعلتنى مضغة فى أفواه أفراد الشعب . ولا شك أنه قد آن تأديبك ووقفك عند حدك . عودى الى محفتك فورا ، والا أمرت العبيد أن يضربوك على مشهد من الجميع

وتراجعت فضيلة فورا الى المحفة ، وأمرت عبيدها بحملها الى القصر بسرعة .. وراح أسد الدين يشيعها بنظراته قائلا لطازمانى فى تهكم :

ـ انها تقترب من الكهولة .. والمرأة فى هذه السن تفقد عقلها من فرط الغيرة . ولعل الله قد أرسل الى هذه الحورية الآدمية لكى تحل محلها .. آه .. دعوا هذا الغزال يعود الى مكانه حتى لاتلتهمه

نظرات الموجودين هنا

وأخذ يتابع روزاموند ، وهى تعود الى الظلة بنظرات ملهوفة

وقال طازمانى وهو يكاد يطير فرحا :

ـ هل اشتريها لك يا مولاى ؟

ـ اجل يا طازمانى ..

ـ بأى ثمن يامولاى ؟

ـ اشتريها ولو دفعت فيها الف جنيه ذهبا ..

فهتف طازمانى قائلا فى دهشة :

ـ الف جنيه ذهبا ! الله أكبر ..

ولكن اسد الدين كان قد تحرك من جانبه ، ومضى عائدا الى قصره فى قلعة القصبة

وتمنى طازمانى لو استطاع أن يبقى حتى يفتتح الدلال السوق ويبدأ البيع . ولكنه كان يعرف ان الدلال لا يسلم الجوارى والعبيد الذين يتم شراؤهم الا عند دفع الثمن نقدا ، حتى ولو كان الشارى هو مندوب الوالى نفسه . ولما لم يكن لدى طازمانى مبلغ الالف جنيه ، فقد اضطر الى العودة مع سيده ليحصل منه على المبلغ

وشاء القدر ان يلتقى فى فناء القلعة بالاغا أيوب السمين وزير فضيلة الخاص . وكانت الكراهية متبادلة ، بطبيعة الحال ، بين طازمانى والاغا . ومن ثم انتهز طازمانى هذه الفرصة لكى يفزع الاغا ، ويؤكد له أن سلطانه سوف يزول بزوال سلطان فضيلة ، فقال له متهكما :

ـ كيف حالك يا ابا الريح .. هل سمعت آخر الانباء ؟

ـ اتقصد اعجاب مولانا الوالى بتلك الصعلوكة الافرنجية ؟ !

ـ هذه الصعلوكة الافرنجية يا ابا العدم سوف تكون لها الكلمة الاولى فى هذا القصر غدا .. آها .. انى أرى لحمك السمين يهتز فزعا كما سيهتز نفوذك غدا وينهار

ـ ماذا تقول ايها الوغد ؟

ـ اتقول انى وغد ؟ حسنا .. اذهب وقل لمولاتك فضيلة ان لدى امرا بشراء أجمل فتاة فى الدنيا ، ولو دفع مولانا الف جنيه ذهبا

لمنا لها ؟ ولاشك انها ستفهم ان ايام سلطانها قد ولت

فهتف أيوب السمين فى حنـــق وفزع ، قائلا وهو يسرع الى مولاته :

ـ ادعو الله ان يموت ابناؤك ، وان تباع بناتك فى سوق الجوارى

فضحك طازمانى ، وقال له متهكما :

ـ وانا ادعو الله ان يجعل ابناءك ملوكا وسلاطين !

وانصتت فضيلة الى أيوب ، وهى تكاد تفقد عقلها من فرط الغضب والخوف . فلما فرغ ، راحت تصب اللعنـات على راس الوالى ، وعلى صقر البحر ، وعلى كل من يحاول ان ينتزع سلطانها منها ، ثم قالت بعد ان هدات ثائرتها قليلا :

ـ يجب ان تتصرف بسرعة يا ايوب والا ضعنا جميعـا .. انا وانت ومرزاق الذى لن يستطيع بمفرده أن يقف أمام أبيه . اننى لا اشك الان فى ان صقر البحر قد جاء بهذه اللعينة لكى يغرى بها زوجى العجوز وينتزعه من يدى .. ولكننى سـاعرف كيف ارد كيده الى نحره

فقال ايوب فى خوف :

ـ وكيف يا مولاتى ؟

ـ سوف اجعلك تزايد عليها وتشتريهـا رغم انف طازمانى . وبعدها لن يعرف الذباب الازرق لها طريقا

ـ ولكن الوالى يا مولاتى لن يغفر لنا هذا !

ـ اطمئن يا ايوب .. اننى ساعرف كيف اجعله يقبل القـدر الذى كتب عليه .. المهم أن تبعدها تماما عن عينيه

فصاح أيوب فى فزع :

ـ ولكننى لا استطيع يا مولاتى ان اشترك فى هذه المؤامرة !

ـ ومن قال انك ستشترك فيها .. انك عبد مأمور .. وما عليك الا ان تطيع امرى . وهذا سوف يعفيك من كل مسئولية .. هلم الان .. لسوف اعطيك الفا وخمسمائة جنيه لتنتصر على طازمانى فى السوق وتعيده الى سيده صفر اليدين !

فى سوق العبيد

افتتح الدلال السوق بعد ساعة من انصراف الوالى .. وراح بلباقته وخبرته ونفوذه يدفع المشترين الى التنافس والمزايدة . وتم بيع عدد من الاسرى باسعار مرتفعة . ولكن مندوب صقر البحر استطاع أن يشترى ليونيل بمبلغ خمسة جنيهات فقط ، لان امارات الكآبة والتخاذل التى كان ينطق بها وجهه جعلت الجميع يرفضون المزايدة عليه ، لان التجارب اثبتت ان العبد الذى ترتسم على وجهه مثل هذه الامارات لا يصلح لشىء ، ولا يرجى منه اى نفع

وجاء دور روزاموند .. فتقدمت الى حلقة البيع وهى تزم شفتيها وتعض على نواجزها ، وتغض ببصرها ، وقد قررت فى ذات نفسها أن تنتحر اذا لم تجد فى النهاية مهربا من هذا المصير

وبدأ المزايدة عليها رجل مغربى كهل من الاثرياء كان قد اشترى عبدين نوبيين .. وقد بدأ المزايدة بسعر كان يعتقد انه لن يجد من ينافسه فيه ، اذ قال :

ـ مائة وخمسون جنيها ذهبا

وقال الدلال بذلاقة لسانه :

ـ لا .. لا .. هذا ثمن بخس جدا .. انظروا الى وجهها الشبيه بالقمر فى ليلة التمام .. انظروا الى جمالها الذى تحار فى وصفه العقول

وقال رجل تركى من الاثرياء :

ـ مائتا جنيه ذهبا

وعاد الدلال يتغنى بجمال روزاموند ، ويسهب فى ابراز محاسنها حتى تقدم جزائرى يدعى يوسف ، وقال :

ـ مائتان وخمسون جنيها ذهبا

وصاح المغربى الاول غاضبا ، وكان يدعى حامد

ـ ما هذا بحق الله ؟ .لقد اشتريت بمثل هـذا الثمن ثلاث عذارى صقليات

فقال الدلال :

ـ وأين العذارى الصقليات من هذا الجمال المجسم المصنوع من اللبن الحليب وعصير الورود ؟

وقال حامد :

ثلثمائة جنيه ذهبا

ورأى طازمانى أن الوقت قد حان ليدخل فى ميدان المزايدة فقال :

ـ اربعمائة جنيه ذهبا

وكان يعتقد أن أحدا لن يستطيع أن يزيد على هذا الثمن شيئا .. ولكن لشد ما كانت دهشته حين سمع صوت أيوب الرفيع الحاد يقول :

ـ خمسمائة جنيه ذهبا

وقال يوسف الجزائرى فى تهكم ، وهو ينصرف غاضبا :

ـ يبدو أن هذه الساحرة الافرنجية قد لعبت بعقول الرجال .. لم يعد لى بقاء هنا

وقال طازمانى بهدوء :

ـ ستمائة جنيه ذهبا

ورفع التركى يديه الى السماء ، وقال :

ـ يا الله !.. هل جن الناس اليوم ؟!

وصاح أيوب بصوته الرفيع الحاد :

ـ سبعمائة جنيه ذهبا

وفغر الجميع أفواههم ، وتراجع معظمهم بعيدا عن حلقة المزايدة ، بينما تصاعدت الدماء الى وجه روزاموند التى كانت لا تفهم شيئا مما يدور حولها بتلك اللغة الخليط بين العربية والفرنسية

وقال طازماني ، وقد بدأت أعصابه تتوتر :
ـ ثمنمائة جنيه ذهبا !
ـ تسعمائة ! ..
واستدار طازماني الى أيوب السمين ، وصاح به غاضبا :
ـ ما هذا التهريج يا أبا الريح ؟ !
وبعد ان هدأت عاصفة الضحك ، قال أيوب :
ـ لا شك انك المهرج الاول
وأمر الدلال الجميع بالصمت ، وقال طازماني :
ـ الف جنيه ذهبا ..
ـ الف ومائة جنيه ذهبا !
واربد وجه طازماني ، ولم يدر ماذا يفعل . لقد أعطاه أسد الدين الف جنيه فقط ، وأمره ان يزايد فى الثمن الى هذا المقدار. فهل يغامر ويمضى فى المزايدة فيعرض نفسه للتانيب ، أو يتوقف ويدع الفتاة تفلت منه فيعرض نفسه لما لا يعلمه أحد غير الله ؟
وقرر أن يزيد الثمن مائة أخرى ، ولو دفع الفرق من جيبه ، ومن ثم قال :
ـ الف ومائتا جنيه ذهبا ..
ـ الف وثلثمائة ..
وصاح طازماني وهو يرتعد غضبا وحنقا :
ـ اقسم ان هذا الأغا البدين لا يبغى الا التهريج ، ولن يستطيع ان يدفع هذا المبلغ !
فقال أيوب وهو يتناول كيس الجنيهات الذهبية المحتوى على الالف وخمسمائة جنيه :
ـ هذا هو الثمن .. وسوف تتبقى لى مكافأتى الجزيلة
ـ ألاتعرف أيها المخلوق أننى أشترى هذه الفتاة لمولانا أسد الدين ؟
ـ ان مولانا أسد الدين يحترم القانون ، وهذه سوق حرة .. الفائز فيها من يدفع الثمن الاعلى
وقال الدلال :
ـ الف ومائتا جنيه ذهبا أيها السادة ، هل من يزيد ؟

وقال طازمانى متراجعا :

ـ ليس لدى امر بان ازيد عن هذا الثمن .. فلتكن مشيئة الله

وفى تلك اللحظة ، ارتفع صوت من وراء الواقفين حول الحلقة يقول :

ـ الف واربعمائة جنيه ذهبا

وهتف الجميع فى دهشة وقد افسحوا الطريق بسرعة بعد أن عرفوا صوت صقر البحر الذى راح يتقدم بخطوات ثابتة ورأس مرفوع ، والهتاف بحياته يتعالى من كل مكان

وارتعدت روزاموند ، واغمضت عينيها ، وابتهلت فى نفسها الا ينجح صقر البحر فى تحقيق هدفه ، اى فى شرائها لتكون جارية بين يديه . ولكنها فى ذات الوقت قررت ان تقتل نفسها اذا كان هذا المصير فى انتظارها

اما طازمانى ، فقد تهلل وجهه فرحا ، وقال شامتا لايوب :

ـ العظمة والكبرياء لله ايها اللعين .. لقد ارسل الله من ينتصر عليك وعلى الذين ارسلوا بك الى هذا المكان

ولم يحفل ايوب به ، وانما صرخ قائلا :

ـ الف وخمسمائة جنيه ذهبا

وقال صقر البحر بكل هدوء :

ـ الفا جنيه ذهبا

واسقط فى يد ايوب السمين ، واكتئاب وجهه ، واطرق برأسه قائلا فى همس :

ـ مادام الشيطان قد اعطى هذا الاجنبى اللعين كل هذه الثروة ، فلابد له ان يفوز بما يريد !

ولكن يبدو ان هذه الكلمات بلغت مسامع صقر البحر ، فاذا هو يمسك بقفا ايوب السمين فى قوة عارمة ويضع وجهه فى أرض السوق المتربة ، ثم يدلك هذا الوجه فى التراب ، وهو يقول له :

ـ عندما تتحدث الى اسيادك فيجب ان تنظف لسانك

وصاح ايوب قائلا :

ـ الرحمة يا مولاى .. الرحمة

ـ اسحب كلماتك اولا

ـ انني أسحبها واعترف بحماقتي وسفاهتي ، وأدعو الله أن يزيدك من نعمته ويجعل النصر الدائم في ركابك

فاطلق صقر البحر سراحه ، وقال :

ـ اخرج الآن قبل أن يمزقك رجالي اربا

وانطلق أيوب السمين مهرعا خارج السوق لا يكاد يلوي على شيء

وقال الدلال :

ـ هذه الجارية ملكك الآن يا صقر البحر بالفي جنيه ذهبا

فقال صقر البحر :

ـ ادفع له الثمن يا علي ..

ثم استدار الى عبديه المملاقين ، أبيض ، وزالزار قائلا :

ـ احجبا وجهها ، واحملاها الى قصري ..

ولو كان في مقدور أحد أن يقتل غيره بنظراته ، لأمكن لروزاموند ان تقتل صقر البحر ، وهي تنظر اليه في حقد مزدوج بالازدراء !

mersalli

الفصل العاشر

الخديعة

كان قرص الشمس يغيب بسرعة عند الافق البعيد ، عندما وصل صقر البحر وبعض اتباعه الى ابواب قصره الابيض خارج باب الاوب ، اى خارج اسوار المدينة

وكانت الاوامر قد صدرت بحمل الاسيرين ، ليونيل وروزاموند الى القاعة الكبرى فى سطح القصر ، المطلة من بعيد على البحر ، والمفروشة بافخر انواع السجاجيد الشرقية والوسائد والحشايا الحريرية ، والمظللة بقباب مبطنة بالحرير الازرق المرصع بالاحجار الكريمة على شكل نجوم

وفى جانب من هذه القاعة الكبرى ، وقف ليونيل وجها لوجه مع روزاموند يبادلها النظرات فى صمت ، بينما وقف على جانبيها المملاقان النوبيان كانهما حارسان من الجرانيت

وراح ليونيل يتاوه ويتوجع ، ثم يقول فى تخاذل :

ـ اوه ، من كان يصدق أننا سنتعرض لكل هذا الذل .. ياالهى . يا الهى ! .

واخفى وجهه الشاحب المرهق بين يديه ، وراح يتمايل يمينا وشمالا حتى وضعت روزاموند يدها على ذراعه وقالت بهدوء :

ـ اننى اعرف الطريق الى الخلاص من هذا العذاب يا عزيزى

فنظر اليها مدهوشا ، وقال :

ـ كيف ؟

ـ انه الطريق الذى يضحى فيه الانسان بحياته عندما تصبح هذه الحياة عبئا ثقيلا .. أثقل مما شاء الله أن تكون

فتاوه مرة اخرى ، واخفى وجهه بيديه . ولاحظت روزاموند انه لم يفعل ، منذ وقع أسيرا ، أكثر من التوجع والتاوه ، بينما كانت تنتظر منه ان يواسيها وان يكون قدوة لها فى الشجاعة والصبر

واقبل بعض العبيد يحملون المشاعل التى تفوح بعبير خشب الصندل والمسك ، فوضعوها فى الاماكن المخصصة لها .. وبعد ان انصرفوا ، اذا بصقر البحر يقبل ، ثم يقف أمام الاسيرين فى ترفع واعتزاز بالنفس ، وبوجه لا يعبر عن شىء معين . وكان مرتديا الملابس العربية ، القفطان الحريرى ، والحزام الجلدى ، والعمامة البيضاء ، وفى قدميه شبشب تركى مرصع بالاحجار الكريمة

واشار الى النوبيين المملاقين بالانصراف ، فلما اطاعا الامر فى صمت ، قال لروزاموند وهو ينحنى أمامها قليلا :

ـ هذا يا آنستى هو قصرك منذ اليوم ، وسوف تعاملين فيه معاملة الزوجة لا الجارية .. لان التقاليد الاسلامية فى بلاد المغرب تخصص للزوجات القاعات العليا فى القصور والمنازل

ونظر ليونيل اليه فى خوف وتخاذل ، وهو يتصور بخياله الآفا من أنواع التعذيب التى سيلقاها على يدى أخيه هذا غير الشقيق . وكلما حلق به الخيال فى هذا الاتجاه ، تراجع وانكمش كانه طائر كسير الجناح امام نسر رهيب .. ولكن صقر البحر لم يكن يلتفت اليه ، وكانما لا يشعر بوجوده

اما روزاموند ، فقد واجهته بقامتها الطويلة فى ثبات رغم شحوب وجهها ، ورغم ارتفاع صدرها وانخفاضه مما ينم على اضطرابها النفسى

وقالت اخيرا :

ـ ماذا تنوى ان تفعل بى ؟

وكان القمر قد بدأ يطل من وراء الجبال البعيدة فى الناحية الشرقية عندما أجاب قائلا :

ـ ليس لك ان تسائلنى عن نوايای .. لقد جاء وقت لم يكن هناك فى هذه الدنيا من هو اخلص لك منى . ولكنك بقسوتك وبضعف ايمانك فى اخلاصى ووفائى ضيعتنى من بين يديك . اما الآن ، فسوف تجدين من الصعب عليك ان تفلتى من يدى

فلما رآها تبتسم ساخرة ، تقدم نحوها خطوة وقال بصرامة :

ـ انك جاريتى .. انفهمين ؟ لقد اشتريتك من سوق الجوارى والعبيد كما لو كنت اشتريت بغلا او عنزة او جملا ! . انك الآن ملكى روحا وجسما . ان فى مقدورى ان افعل بك ما اشاء دون ان تكون لك ارادة غير ارادتى ، ودون ان تستطيعى التصرف فى شىء الا باذن منى

فتراجعت خطوة امام ذلك الحقد الرهيب الذى كان يقطر من كلماته ممزوجا بالتهكم والاستعلاء . ثم همست بصوت كالفحيح .

ـ أيها الحيوان !

ـ والان ، لعلك تدركين معنى الاستعباد الذى دفعت بى يوما الى ما هو اقسى منه

فلهثت قائلة :

ـ ارجو ان يغفر الله لك

ـ اشكر لك هذا الدعاء .. وارجو من جانبى ان يغفر لك ايضا

وفى تلك اللحظة ، سمع الاثنان شهقة بكاء صادرة عن ليونيل .. فالتفت اليه صقر البحر ، وقال له بعد ان رمقه برهة فى صمت :

ـ ها أيها الاخ السابق ، ماذا حـــدث لك ؟ أنظرى الى الشـــاب الباسل الذى قررت أن تتزوجى به لولا وصولى فى الوقت المناسب ، انظرى اليه ! الى الاخ العزيز الذى كان لى يوما !

وازاء هذا التهكم القاسى ، رد ليونيل قائلا فى تهور :

ـ انك لست اخا لى ، وانما انت ابن المراة التى خانت عهد أبى

وارتعد صقر البحر ، وبدا عليه كانما صفعه أحد بقوة ، ولكنه تمالك نفسه وقال بصراحة :

ـ لو سمعتك مرة اخرى تذكر اسم امى على لسانك القـــذر ، فسوف أنتزعه من حلقك . وأحمد الله انها الآن بعيدة عن اهانات الاوغاد امثالك . وعلى كل حال اياك ان تذكر بالسوء السيدة التى تضىء ذكراها لى الحياة

وفجاة انقض ليونيل ، كما يفعل الجرذ أحيانا فى لحظة اليأس ، على صقر البحر وحاول ان ينشب اظافره فى وجهه ، ولكن صقـــر البحر امسك بمعصم يده اليمنى وضغط عليه ، فركع ليونيل وهو

يحاول ان يكتم صيحة ألم مع شهقة بكاء . وقال له صقر البحر :

ـ انك تراني قويا .. لا عجب في هذا ؟ فكر فقط في انني عشت ستة اشهر امام مجداف سفينة اسبانية اعمل فيه ليلا ونهارا ، ثم افهم لماذا اصبحت على مثل هذه القوة العظيمة التي كان ثمنها كل احساس نبيل

ثم القى به بعيدا ، واردف قائلا :

ـ اتعرف ما هي اهوال مقعد التجديف ! اتعرف معنى الجلوس على مقعد خشبي جاف ليلا ونهارا ، والسلاسل الحديدية في قدميك ، والمجداف بين يديك ، ورائحة العفن الصاعدة من زملائك ليلا ونهارا ، وآلام الجراح الدامية التي لا تندمل ، وانصهار الجسم في شمس الصيف ، وتجمده في ليالي الشتاء ، والاهيب سوط رئيس الجدافين ، كل هذا مع العمل الشاق المتواصل ليلا ونهارا ؟

وارتفع الصوت في نبرات غاضبة حين اردف صقر البحر قائلا :

ـ اتعرف هذا كله ؟ حسنا ! غدا سوف تعرفه عمليا ، لانك ستجلس على نفس هذا المقعد الذي دفعتني بمكرك ودهائك واجرامك الى الجلوس عليه .. وكل الفرق بيني وبينك انك ستبقى فيه الى ان تموت

وتوقف عن الحديث برهة كأنما ينتظر ان يسمع رد ليونيل ، ولكن هذا ظل مكوما على نفسه في المكان الذي دفع به اليه صقر البحر . ومن ثم استطرد هذا يقول :

ـ ولكن قبل أن تذهب الى هذا المصير ، هناك شيء مهم هو الذي جعلني آتي بك الى هنا الليلة .. انك لم تقنع بكل ما فعلته بي .. لم تقنع بالقاء تهمة القتل على كاهلي ، وتحطيم اسمي ، واغتصاب ممتلكاتي ، وطردي الى طريق ملىء بالعذاب والهوان . لم تقنع بكل هذا ، وانما ابيت الا ان تختلس مكاني في قلب هذه الفتاة القادرة التي احببتها يوما

واستطرد يقول بعد لحظة تفكير :

ـ انني ارجو ان تكون محبا لها حقا ان كان لمثلك ان يعرف ماهو الحب ، وذلك لكي يضاف الى عذابك البدني ، عذاب روحي وعاطفي لا يمكن وصفه كلما تذكرت ان الفتاة التي تحبها تعيش جارية بين

يدى غريمك اللدود

وقال ليونيل مكشرا عن أسنانه :

ـ أيها الشيطان ! أيها الجان الخارج من أعماق النار !

ـ لماذا تعيرنى بالشيطنة أيها الاخ الصغير مادمت أنت الذى جعلتنى هكذا ؟

وهنا قالت روزاموند :

ـ لا تحفل بأمره ياليونيل .. لسوف اثبت له انه مجرد ثرثار صغير ، بقدر ما هو وغد لئيم .. فلا تدعه يؤثر فيك بارادته الشريرة

فقال صقر البحر :

ـ مهما قلتما عنى ، فما أنا الا ما صنعته أيديكما

فقالت روزاموند :

ـ هل نحن اللذين جعلناك جبانا كذوبا ؟

ـ جبانا ؟ .. لابد أن هذه فرية أخرى نسجها لك بخياله اللئيم عنى . والا ، فانى أرجوك أن تذكرى لى متى رأيتنى جبانا ؟

ـ اننى أراك الآن جبانا .. فهل هناك اجبن من انسان يضرب بلسانه وتهكماته شخصين اعزلين لا يملكان الدفاع عن نفسيهما ؟

ـ اننى لا أتحدث عن نفسى الآن ، وانما أريد أن تذكرى ماتعرفينه عنى فى الماضى .. فمتى رأيتنى جبانا فى الماضى ؟

فنظرت اليه بدهشة ، وقالت مرددة :

ـ فى الماضى ؟ اتريد ان تذكر الماضى ؟ الا تخجل من نفسك وانت تقول هذا ؟

ـ من اجل الحديث عن الماضى غامرت بالرحلة الى انجلترا والاتيان بكما الى هنا . اننى أريد ان اواصل حديثا انقطع يوم حاولت ان اثبت لك براءتى من دم اخيك ، فما كان منك الا ان طردتنى دون أن تستمعى الى

فقالت متهكمة :

ـ ماذا كنت تنتظر منى اذن ؟ اكنت تنتظر ان افتح ذراعى لارحب بقاتل اخى واتركه يسكب اكاذيبه فى اذنى ؟

ـ لقد أقسمت لك يومذاك أنى لست بقاتله

ـ واجبت عليك يومذاك انك كاذب

ـ اجل ، ثم طردتنى .. طردتنى لانك ابيت ان تقيمى اى وزن لقسم الرجل الذى عاهدته يوما على الحب ، وعلى الوفاء

ـ عندما عاهدتك على هذا لم اكن اعرف ماتنطوى عليه نفسك من خبث ولؤم وميل غريزى للاجرام . واعتقد اننى الآن ادفع ثمن ذلك الحب الخبيث الذى حملته لك يوما

فقال صقر البحر فى انفعال شديد :

ـ كذب .. كذب .. لقد كان ذلك الحب اقدس واشرف واطهر عاطفة قامت بين رجل وامراة فى هذه الدنيا .. ولولا

فقاطعته قائلة ببرود :

ـ ارجو ان تعفينى من هذا الحديث عن الحب ، ثم افعل ماتشاء

ـ اننى لن اعفيك من سماع ما اريد ان اقوله لك . لن تجدى هنا من يقطع علينا الحديث . ولن يكون لك هنا النفوذ الذى يدفعك الى طردى من امامك كما فعلت يوما . ولهذا سـوف تسمعين كل ما سأقوله لك .. كلمة ، كلمة . وبعد ذلك سوف تدركين مدى الجناية التى جنيتها على حين آمنت ـ امام اضعف الادلة ـ اننى قاتل اخيك ..

ـ اضعف الادلة ؟

ـ نعم . لقد بلغ من ضعف هذه الادلة امام قضاة محكمة تروردو انهم اصدروا الحكم ببراءتى

ـ لقد اصدروا الحكم ببراءتك لانهم كانوا يجهلون حقيقة نفسيتك

فنظر اليها مليا فى حيرة . وكان فى تلك اللحظة قد نسى تماما امر ليونيل المتكمش فى ركنه . واخيرا قال :

ـ ارجو ان يمنحنى الله الصبر عليك . فانا احوج ما اكون اليه الان ، لانى اريد منك ان تفهمى اشياء كثيرة الليلة . اننى اريد ان تدركى مبلغ مالدى من اعذار فى كل ما فعلت ، ومدى العدالة فيما سوف انزله بك وبهذا الوغد من عقاب جزاء مافعلتماه بى ظلما وعدوانا . ان القاضى باين ، وآخر قد مات ، يعلمان اننى برىء

فقالت فى صوت يجمع بين الدهشة والتهكم :

ـ يعلمان انك برىء ؟ الم يشهدا معركتك مع اخى التى اقسمت فيها ان تنتقم منه ؟

ـ كان قسما صدر عنى فى لحظة غضب ، ولكننى تذكرت بعد ذلك انه اخوك

ـ بعد ذلك ؟ بعد ان قتلته ؟

ـ اقول لك مرة اخرى اننى برىء من دمه

ـ وانا اقول لك مرة اخرى انك كاذب

فتاملها مليا ، ثم قال :

ـ هل سبق ان رايت انسانا يكذب بلا هدف معين ؟ ان الانسان يكذب ليستفيد شيئا ، او لخوفه من شيء ، وحبا فى الاضرار بشخص آخر ، او لانه مغرور وتافه وسوقى النزعة، اننى لااعرف اسبابا اخرى تدفع الانسان الى الكذب الا

ثم القى نظرة خاطفة نحو ليونيل قبل ان يردف قائلا :

ـ الا اذا اراد بهذا الكذب ان يتستر على انسان آخر مضحيا فى هذا السبيل بمصالحه الخاصة . هذه هى الحوافز التى تدفع الانسان الى الكذب فى رايى ، فهل تجدين الليلة بينها ما يدفعنى الى هذا ؟ فكرى ! اسالى نفسك عن الهدف الذى اسعى اليه الآن ، فكرى ايضا فى انى قد اصبحت الآن احتقرك لما تكشف لى من غدرك وخيانتك ، وانى لم آت بك الا لاوقع عليك العقاب العادل جزاء ما فعلته بى .. فما هو الهدف الذى ارجو تحقيقه بعد هذا كله عن طريق الكذب ؟

ـ وما هو الهدف الذى تسعى اليه عن طريق الصدق ؟

ـ ان هدف من الصدق ان اجعلك تدركين مدى الظلم الذى انزلته بى ، لكى اجعلك تفهمين الى اى حد اسأت الى ، والى اى حد يجب ان تدفعى الثمن، لكى اجعلك تشعرين انك لست ضحية او شهيدة ، لكى اجعلك تشعرين ـ بكل مرارة ـ ان ما سينالك من عقاب ما هو الا ثمرة ما زرعته بيديك

فقالت روزاموند :

ـ سير اوليفر ! اتحسبنى بلهاء ؟

ـ نعم يا آنستى ، واسوا من هذا !!

ـ هذا واضح من حديثك .. ولكن ما دامت الكلمات لا يمكن ان تلمس الحقائق ، فيمكنك ان تتكلم منذ الآن الى يوم القيامة دون ان تمسح اية كلمة آثار الدماء التى كانت على الجليد ابتداء من مكان الجريمة الى باب بيتك . لن تستطيع كلمة منك أن امحو الكراهية التى كانت بينك وبين اخى . ولست ادرى كيف تقف الآن وتجرؤ على محاولة اقناعى بأنك برىء من دم اخى !

ـ اتظنين انى لا استطيع ان اقدم الادلة على براءتى ؟

فنظرت اليه فى دهشة بالغة وقالت :

ـ ادلة ؟ أتتحدث عن الادلة بعد أن بادرت بالهرب من البلاد حين شعرت ان مندوب الملكة فى طريقه اليك ، باسم الشعب ، ليجعلك تقدم الحساب عما جنت يداك ؟

وجاء دوره لينظر اليها بنفس الدهشة البالغة :

ـ بادرت بالهرب ؟ اية فرية جديدة هذه ؟

ـ لعلك ستقول ايضا انك لم تهرب ! اهذه كذبة أخرى تريد ان تقولها ؟

فقال ببطء :

ـ اهكذا ؟ لقد كنت تظنين انى هربت ؟

وادرك الحقيقة كاملة فى تلك اللحظة .. ادرك أن ليونيل ، بعد ان دبر مؤامرة اختطافه ، اشاع انه هرب خوفا من عقاب الشعب. ولا شك انه بذلك أصاب عصفورين بحجر واحد .. اكد امام الناس انه القاتل فعلا ، ثم اطمأن الى نفسه خوفا من أن يضطر أوليفر الى ذكر الحقيقة عند التحقيق معه أمام مندوب الملكة . ولا شك أن روزاموند لها العذر فى ايمانها بأنه القاتل مادامت قد اعتقدت انه هرب ولم يختطف ، ولا شك ان لها العذر اذا هى مزقت الرسالة التى بعث بها اليها مع الشاب بيت ، ولا شك ان لها كل العذر فى كل موقف اتخذته منه ، مادامت كل الدلائل قد أثبتت لها انه القاتل الحقيقى لأخيها

وغمره فجأة شعور قوى بأنه ظلمها .. وانه قد تمادى فى هذا الظلم باختطافه لها وتعريضها لكل هذا الهوان . ولم يسعه عندئذ الا أن يقول متوجعا كانسان لا يحتمل الألم الذى يعانيه :

ـ يا الهى ! يا الهى رحمتك

ثم قال لها وهو يشيح بوجهه لانه لم يكن قادرا على مواجهة نظراتها القاسية

ـ وبماذا تؤمنين ايضا !

ـ اومن بكل الحقائق الرهيبة التى عرفتها منك

وهنا تمالك نفسه وقد استبد به الغضب ، وقال :

ـ الحقائق الرهيبة ؟ حسنا ، لسوف تعرفين هذه الحقائق ولسوف تدركين الليلة انها ابشع الف مرة مما يخطر ببالك

وكان فى نبرات صوته شىء جعلها تنصت اليه فى انتباه شديد رغما عنها . اما هو فقد استطرد يقول :

ـ لقد لقى أخوك حتفه على يدى الشاب المتخاذل الذى أحببته ، ورايت ان اؤدى واجبى الاخوى كاملا لحمايته ، لقد هرب بعد ارتكابه الجريمة الى بيتى مباشرة ليحتمى فيه ، ولكنه ترك وراءه اثرا من الدماء على الارض المكسوة بالجليد ، بسبب الجرح الذى اصابه فى فخذه اثناء المعركة

ثم اردف قائلا بصوت المحامى القدير الواثق من براءة موكله :

ـ اليس عجيبا ان احدا لم يفطن الى أن جسمى كان خاليا من كل جرح يترك مثل هذه الآثار وراءه فى ليلة الجريمة ، الم يحاول احد ان يسأل عن مصدر هذه الدماء ؟ ولكن القاضى باين كان يعرف هذه الحقيقة ، لانى تركته يفحص كل جزء من جسمى .. ومن ثم كتب شهادة بذلك وارسلها الى مندوبى الملكة

وتذكرت روزاموند أنها سمعت شيئا من هذا القبيل ، وأن شهادة موقعة عليها من القاضى باين والقس ـ الذى توفى بعد ذلك ـ اندرو فلاك ، وأن ثمة اجراءات معينة قد اتخذت لتكتم أمر هذه الشهادة حين قبل ان اوليفر قدم رشوة للقاضى لكى يفسل هذا

وافاقت من ذكرياتها على اوليفر ، وهو يقول :

ـ ولكن لندع هذا الآن .. ولنعد الى الحادث نفسه ، لقد تسترت على اخى ، بحكم الواجب ، وتركت اصابع الاتهام تتجه نحوى . ولما لم يكن فى وسعى ان اعلن الحقيقة كاملة الا اذا ضحيت به ، فقد آثرت الصمت ، واعتمدت على ضعف الادلة

فى اظهار براءتى ، ولكن الشك تحول الى يقين فى عقول الناس عندما تخلت عنى الفتاة التى وهبتها قلبى ، فرغم صدور الحكم ببراءتى ، أبيت الا أن تقطعى كل علاقة لك بى ، دون أن تحفلى بقسمى ، وهكذا دفعتنى أمام الرأى العام بالكذب وبارتكاب الجريمة. وانتهى الامر الى ان ارسلت الملكة مندوبيها ليحققوا معى بعد ان نفذت الحكم الذى أصدرته محكمة تورورو

وبعد برهة من الصمت ، قال مستأنفا الحديث :

ـ هذا هو ملخص الحادث . والآن ، سأسرد الحقائق ... فضلا عن شهادة القاضى باين ، هناك شهادة امراة اخرى ، بغى ، كانت تقيم فى نفس مالباس . وقد كان فى مقدورى أن اجعلها تتقدم للشهادة ، لأنها رات ما حدث بنفسها .. ذلك لان الجريمة نشأت بسبب تنافس اخيك وهذا الوغد على الاستئثار بعواطفها. واقول لك أن أخاك مات من أجل شهوة دنيئة خسيسة ، وفى سبيل امراة بغى !

ـ هل يليق هذا الحديث عن الموتى ؟

ـ صبرا !.. انى لا أسىء الى أحد ، وانما أذكر الحقائق المجردة . لقد صبرت طويلا ونجوت من الموت اكثر من مرة لكى اذكرها لك اخيرا . ان هذا الأخ المجرم أدرك انى قد اكون خطرا عليه فى يوم ما عندما اضطر تحت الظروف القاهرة الى ذكر الحقيقة كاملة ، ولعله اراد ايضا ان يغتصب ممتلكاتى ، ثم يظفر بالفتاة التى وهبتها يوما قلبى ، ولهذا دبر مؤامرة لاختطافى وابعادى عن البلاد

فهتفت روزامونده وكأنما لا تصدق أذنيها :

ـ أتزعم أن ليونيل هو .. هو الذى ...

وصاح ليونيل وقد جلس فى مكانه منتصبا :

انه يكذب .. انه يكذب .. لا تصدقيه ياروزامونده

فقالت ، وهى تشيح بوجهها عن صقر البحر :

ـ انى طبعا لا اصدقه !

وتقدم صقر البحر نحو اخيه وقد جحظت عيناه من فرط الغضب ،وامسك بمعصمه فى عنف وقال بصوت هادر :

ـ لســـــوف أنتزع الحقائق كلها منك الليلة ، ولو اضطررت الى وضع اساور من الحديد المحمى فى معصميك

وصـاحت روزاموند بوجه شـاحب ، وهى ترتعـد من فرط الاشمئزاز :

ـ أيها الكلب الحقير .. أيها القرصان الغادر .. أيها المجرم القاتل

ولكن صقر البحر لم يحفل بها ، وانما صفق بيـديه ، فاقبل الكابتن لاى فى ملابســه العربية ، وهنا ركل صقر البحر ليونيل بطرف شبشبه ، وقال له مشيرا الى الكابتن لاى :

ـ هل تعرف هذا الرجل ؟ تأمله جيدا ، لقد كان اسمه فى يوم ما جاسبر لاى ، وهو نفس الربان البحرى الذى بعثتنى له لكى ياخذنى ويبيعنى فى الوقت نفسه بجزائر الهند الغربية ، ولكنه وقع فى شر اعماله ، وسقط معى اسيرا بين ايدى الاسبانيين ، ثم انتهى به الأمر الى ان وقع فى يدى . ولما عفوت عنـه اصبح من أتباعى المخلصين . هل أطلب منه أن يذكر ما يعرفه ؟

ثم استدار نحو روزاموند ، وقال :

ـ ولكننى اعتقد انك لن تصدقيه أيضا ، ولهذا لن ادعه يتكلم ، وانما هناك وسـائل اخرى تجعـل ليونيل الوغد يذكر الحقيقة بأسرع ما يستطيع

وطلب من الكابتن لاى ان يرسل اليه تابعه على بأسورتين من الحـديد المحمى . ولما انصرف لاى ، قال صقر البحر متهكمـا لليونيل :

ـ الآن ستعرف هذه الآنسة كل الحقيقة منك

ـ انها ستعرف ان كل ما ساقوله هو الكذب .. لاننى ساضطر الى ارضائك تحت ضغط التعذيب

فابتسم صقر البحر ، وقال وصوته يزداد تهكما :

ـ لا .. بل ستقول الحقيقة كاملة .. الحقيقة التى تعرفها وتؤمن بها . ستذكر لها كيف كمنت لأخيها بيتر فى مكان خفى بحديقة جود لنين ، وكيف هاجمته غدرا و ..

فصاح ليونيل بصوت كله الصدق وهو يقفز واقفا من فرط الانفعال :

ـ كذاب .. كذاب ..!

وكان أوليفر يعرف ان هذه ليست هى الحقيقة ، ولكنه كان يتعمد أن يكذب على ليونيل حتى يستدرجه الى ذكر الحقيقة ، فقال :

ـ هل انا كذاب ؟ وهل من الكذب ايضا انك بقيت مختبئا فى مكمنك ، حتى اذا اقبل بيتر مخمورا ، وثبت عليه من الخلف وطعنته بسيفك غدرا كأى جبان قبل ان يتمكن من وضع يده على مقبض سيفه ؟!

فقال ليونيل ساخرا ، وقد انساق فى تيار الحديث :

ـ ان الحقائق نفسها تكذبك ، لأن سيفه وجد ملقى بجانبه ..

ـ أتحسبنى لا أعرف هذا ؟ ولكن ، ألم يكن فى مقدورك أن تضع بنفسك سيفه بجانبه بعد ان ذبحته ؟

وهنا سقط ليونيل فى الفخ الذى كان ينصبه له أوليفر ببراعة، فصاح قائلا فى استنكار شديد :

ـ الله يشهد انك كاذب .. كاذب ! وانت تعرف انك كاذب.. لقد كانت مبارزة حرة ..

وتوقف عن الحديث فجأة ، وقد ادرك أن لسانه انزلق بالعبارة الأخيرة رغما عنه

وخيم الصمت على القاعة .. ووقفت روزاموند شاحبة الوجه ، مرتعدة الاوصال ، وبدا أوليفر صارم الوجه ، قاسى النظرات رغم انتصاره .. أما ليونيل فقد تخاذل متهالكا بعد ان ادرك حقيقة الشرك الذى وقع فيه

وأخيرا قالت روزاموند بصوت مرتجف :

ـ ماذا ؟.. ماذا قلت يا ليونيل ؟

ولما أطرق ليونيل برأسه ، تقدمت هى خطوة نحوه وصاحت قائلة :

ـ تكلم يا ليونيل .. تكلم .. الا تسمعنى ؟ احقا هذا ؟

وقال اوليفر :

ـ الم تسمعه بأذنيك ، وهو يقول انها كانت مبارزة حرة ؟

ووقفت برهة مترنحة ، وهى تحملق فى وجه ليونيل الشاحب

المتخاذل . ثم بدا عليها أنها ستقع مغشيا عليها ، فتقدم أوليفر ليحميها من السقوط ، ولكنها منعته بحركة من يدها وتمتمت قائلة :

ـ يا الهى !..

وافاق ليونيل على انينها ، ورأى أن عليه أن يشرح لها الموقف بعد أن أدرك أن الزمام قد افلت من يده ، فقال مبتهلا :

ـ روزا موند ! الرحمة ! انصتى الى قبل ان تسيئى الحكم على

فقال أوليفر متهكما :

ـ اجل ، انصتى اليه .. فمن يدرى فلعله ينوى أن يبرر موقفه بمجموعة اخرى من الاكاذيب ..

ودفع هذا التهكم ليونيل الى القول فى اهتياج شديد :

ـ روزاموند ! انه كاذب .. أننى لم أكمن لأخيك ، ولم أقتله غدرا .. لقد كانت مبارزة حرة . لقد تشاجرنا لسبب ما . . . والتقينا فى حديقة جودلفين ، وسخر منى .. بل وصفعنى وارغمنى على أن استل سيفى لأدافع به عن نفسى .. نعم ... كانت مبارزة حرة .. واقسم على ذلك امام الله ..

فصاحت روزاموند فى ألم عنيف :

ـ كفى .. كفى .. لا أريد أن اسمع اكثر من هذا

ـ لا ، بل اسمعى .. اتوسل اليك أن تسمعى حتى تكونى رحيمة فى حكمك

ـ رحيمة !!

ـ اننى لم اكن اقصد ان اقتله ، لقد قتلته رغما عنى .. كنت احاول ان ادافع عن نفسى . ولكن عندما تتلاقى السيوف ، فلا يعلم النتيجة الا الله .. واشهد الله أن مقتله كان رغما عنى لأنه كان يبارزنى بوحشية وبغضب شديد ..

فقالت وهى تكتم شهقة بكاء :

ـ وهل كان رغما عنك ان تركتنى ، وتركت الناس جميعا يعتقدون أن أخاك هو القاتل ؟

فأجفل ليونيل أمام هذا السؤال ، ولكنه قال متخاذلا :

ـ لو أنك تعلمين مبلغ حبى لك يومذاك ، لالتمست لى بعض العذر

فقالت روزاموند وكأنها تبصق فى وجهه :

ـ الغدر ! انت تريد ان اغدرك ؟

ـ نعم ، نعم .. انت تعرفين مبلغ الاغراء الذى ...

ـ انى اعرف فقط مبلغ خيانتك .. مبلغ غدرك ... مبلغ اجرامك

فاشاحت روزاموند بوجهها عنه ، وهنا قال أوليفر له :

ـ كفى ارهاقا للأنسة ! ولكن الا يحسن ان تحدثها بقصة اختطافك لى ، واغتصابك لممتلكاتى ، و ...

وهنا دخل الكابتن لاى ومعه على يحمل فى اناء حديدى الاساور المصنوعة من الحديد المحمى ، ولكن أوليفر قال له :

ـ لا داعى لهذا الآن .. خذ يا كابتن لاى هذا المخلوق الدنس بعيدا

وراح ليونيل يصيح وهو يمضى فى قبضة الكابتن لاى

ـ روزاموند .. روزاموند .. رحماك

ولكن روزاموند تركت عندئذ بمفردها مع أوليفر ، ومع الحقيقة التى اكتشفتها اخيرا

mersalli

دهاء فضيلة

قال اوليفر لهروزاموند بعد أن طال الصمت بينهما ، وبعد أن تهالكت جالسة وقد اخفت وجهها بين يديها :

ـ اخيرا عرفت الحقيقة .. واحمد الله انى استدرجته اليها بدلا من ارغامه على ذكرها بالتعذيب ، لأنى لو كنت فعلت هذا ، لزعمت انه اضطر لان يقول ما اريد منه تحت ضغط الالم

وتوقف برهة قبل أن يختتم حديثه قائلا :

ـ هذا هو المخلوق الذى فضلته على ، وكدت أن تتزوجيه بدلا منى ..

واخيرا قالت بصوت ينم عن اليأس والاشمئزاز :

ـ الواقع أنه لا داعى للمقارنة بينكما .. وكان ينبغى أن أتوقع هذا ، لان المفروض الا يختلف الاخوان فى نزعاتهما الاجرامية كثيرا. حسنا .. ان الانسان فى هذه الحياة لا يتعلم دون أن يدفع الثمن

فقال غاضبا :

ـ وما الذى تعلمته من الحياة ؟

ـ تعلمت الشىء الكثير من طبائع الرجال !

ـ وطبائع النساء ؟ الم تتعلمى شيئا منها ؟ الم تفكرى فى موقف امرأة معينة .. فتاة كانت تزعم الاخلاص فى الحب ، ثم عجزت عن الايمان ببراءة من تحب ، فدفعت به الى حياة كلها المرارة والالم ؟

فقالت باشمئزاز :

ـ اذا كنت ارجو منك شيئا ، فانا ارجوك ان تعفينى من عار ذكريات هذا الحب

— بل قولى من عار ذكريات خيانتك وغدرك واستعدادك لان تصدقى عنى اسوا ما يمكن ان يصدقه انسان عن غريمه ، لا عن حبيبه

— ان اشد ما يؤلمنى ويجللنى بالعار هو انى احببتك يوما .. ان ذكرى هذا الحب تملؤنى بعار وهوان ، لم اشعر بمثلهما حتى وانا اعرض للبيع فى سوق الجوارى ، ولو كان فى استطاعتى ان اضحى بعمرى لكى انسى انى احببتك يوما لما ترددت فى ان افعل !

فقال وغضبه يزداد بفعل كلماتها الجارحة :

— وماذا جنيت انا من هذا الحب ؟.. ماذا جنيت غير العذاب .. غير الهوان ، غير التشرد خارج بلادى .. غير انى اصبحت كما ترينني الآن ..!

فنظرت اليه فى دهشة واستنكار ، وقالت :

— اترى اننى السبب فى كل هذا ؟

— نعم .. فلو انك وثقت بكلمتى .. لو انك استمعت الى حديثى عن براءتى ، لما استطاع اخى اللئيم ان يتمادى فى الاضرار بى والتآمر على ابعادى عن البلاد

فقالت وهى تحاول ان تبرد موقفها :

— كل هذا لا غنـــاء فيه .. حسبى القول ان غريزتى حذرتنى منك ! وحسبك انك ظهرت على حقيقتك التى كنت تخفيها عنى . حقا انك برىء من دم اخى ، ولكنك مع هـذا ارتكبت اعمالا ابشع من القتل .. لقد تنكرت لوطنك ، ولدينك ، ولعراقة اسرتك ..

فقال وهو يزداد غضبا :

— كفى .. كفى !.. من اين لك ان تعلمى ان كل هذا سيصدر منى ؟ انك تغالطين لتبررى موقفك الفادر منى . حسنا .. هاهو ذا طعام عشائك قد حضر ..

ووضع احد الخدم طبقا من اللحم المطهو فى الصلصة ، وآخر من الخضر ، وثالث من اللحم المشوى .. كل هذا على صحفة من الفضة فوق منضدة صغيرة من الابنوس المرصع بالصـــدف . وبجانب المنضدة وضع نفس الخادم سلة فيها بعض ارغفة الخبز ، وبعـد ذلك اناء من الفخـار الاحمر يحتوى على ماء بارد معطر

بخلاصة زهر الليمون ، ومغطى بغطاء فضى

وقال صقر البحر بعد انصراف الخدم :

ـ كلى ..

ـ لا اريد أن آكل ..

ـ اسمعى يا فتاة .. ليس من حقك منذ اليوم أن تكون لك ارادة خاصة ، وعليك أن تطيعى اوامرى بلا ادنى تردد وانا الآن آمرك ان تاكلى

ـ لن آكل .. !

ـ لن تاكلى ؟ اهذا رد الجارية على سيدها ؟ قلت لك .. كلى !

ـ لا استطيع ، لا استطيع ..

ـ ان الجارية التى تعصى سيدها قد لا تعيش .. !

فقالت بعنف وهى تثب وتقف أمامه فى تحد :

ـ اذن اقتلنى .. اقتلنى ، لقد اعتـــدت على القتل ، وسوف اشكرك على الاقل لو انك فعلت !

فقال لها بكل برود :

ـ سوف اقتلك عندما اريد ، لا عندما تريدين انت .. انك لم تفهمى الموقف بعد .. انك جاريتى .. متاعى ، ملكى ، وانى لا أريد أن يفسد شيء امتلكه بسبب الجوع .. كلى والا امرت العبيد أن يضربوك بالسوط

وظلت واقفة برهة فى تحد ، شاحبة الوجه ، ثابتة الأعصاب ، ولكن يبدو انها لم تستطع ان تحتمل اكثر مما فعلت .. فاذا هى تنهار فجاة ، ثم تنهالك جالسة ، وتجذب المنضدة نحوها ، ثم تتلفت حولها كأنما تبحث عن شيء ، وعندئذ نظرت اليه فى شيء من الاحتقار والتانيب وهى تقول :

ـ هل سأتناول الطعام باصابعى ؟

فقال والتهكم يومض فى عينيه :

ـ ان القوم هنا يرون أن الأصابع التى خلقها الله لهم هى خير أداة لتناول الطعام ، لانها انظف وافضل

ـ وما شأنى انا بما يراه القوم هنا .. اذا كان لابد لى أن آكل ، فيجب ان اتناول طعامى بالطريقة التى يراها القوم فى بلادى

فهز صقر البحر كتفيه ، وقال وهو يتناول الخنجر من حزامه ، ويلقى به اليها :

ـ استعملى هذا كسكين لتقطيع اللحم

فانقضت على الخنجر ، وقالت بانفاس لاهثة وهى تصوبه الى صدرها :

ـ أخيرا منحتنى الشىء الذى سأشكرك عليه

وبأسرع من لمحة البرق ، كان قد سقط على احدى ركبتيه وامسك بمعصمها فى قوة جعلت الخنجر يتهاوى من يدها ، ثم قال باسما فى سخرية :

ـ اتظنين اننى لم اكن منتبها اليك .. لقد القيت اليك بالخنجر عمدا لأعرف ماذا تنوين أن تفعلى

ـ وهل عرفت ؟

ـ نعم .. وتعلمت

فنظرت اليه فى شىء من السخرية ، وقالت :

ـ أتظن أن الخنجر هو الأداة الوحيدة التى يمكن للمرء أن يستل بها الحياة من جسده ؟ .. انك تزهو وتفخر بأنك سيدى ومالكى والمتصرف فى حياتى وقدرى . ولكنك مخطىء ، كاذب .. انك لا تملك الآن الا جسدى ميتا . أما روحى ، فلن تمتلكها أبدا !

وقبل أن يستطيع الاجابة عليها ، اذا بتابعه على يسرع اليه لاهث الانفاس ، ويقول ان سيدة ملثمة تريد أن تقابله لأمر هام

وقال صقر البحر :

ـ سيدة ؟ ! سيدة مسيحية ؟

ـ لا يا سيدى .. بل مسلمة

ـ سيدة مسلمة هنا ؟ هذا مستحيل

وفيما هو يقول هذا ، اذا بسيدة فى ملابس سوداء تدخل القاعة بسرعة وخفة ، واذا على يستدير اليها غاضبا قائلا :

ـ الم آمرك بالانتظار يا ابنة العار ؟ لقد تبعتنى الى هنا يا سيدى لتدخل بغير اذن .. هل اطردها ؟

ـ لا .. دعها ، وانصرف انت

وما كادت السيدة ترفع النقاب عن وجهها حتى هتف

صقر البحر فى جزع قائلا :
ـ فضيلة ؟ .. اى طيش هذا ؟
وبعد أن أعلنت عن نفسها بهذه الطريقة المسرحية ، عادت واسدلت النقاب على وجهها ، بينما قال صقر البحر :
ـ ماذا يفعل بى وبك مولانا أسد الدين لو علم بقدومك هكذا ؟ هلم يا سيدتى واسرعى بالخروج
ـ لا تخش شيئا من جانب اسد الدين .. انه لن يعلم بحضورى الا اذا اخبرته بنفسك
ولما حاول ان يرد ، قاطعته بسرعة قائلة :
ـ ان كثرة الجدل فى هذا الشأن لن تجدى .. بل ستعطلنا على غير جدوى
ـ اذن ماذا تريدين يا سيدتى ، تحدثى بسرعة
فاشارت الى روزاموند ، وقالت على الفور :
ـ لقد ارسلت وزيرى ايوب الى السوق اليوم لشراء هذه الجارية
ـ اعرف هذا ..
ـ ولكن يبدو انها سحرتك ، وتركك الاحمق تظفر بها دونه
ـ حسنا !
ـ اريد ان تبيعها لى بنفس الثمن
ـ يؤسفنى ان ارد طلبك .. انها ليست للبيع
ـ اوه . انتظر ! لسوف ادفع لك اربعة آلاف جنيه ثمنا .. ان الرغبة فى شرائها نزوة من نزواتى .. وانا احب عادة ارضاء نزواتى
ولكن صقر البحر كان يدرك ان وراء هذه النزوة هدفا أسود تريد ان تحققه ، الا انه تظاهر بالجهل وقال :
ـ وما نوع هذه النزوة التى تكلفك هكذا غاليا ؟
ـ الرغبة فى ان تكون ملكا لى
ـ ومنذ متى نبتت هذه الرغبة فى أعماق نفسك ؟
فقالت فى غضب مفاجىء ، وهى تواجهه بقوة وتحد :
ـ لماذا كل هذه الاسئلة ؟ .. هل ستبيعها او لا ؟

ـ لا ..

ـ عجبا ! الا تبيعها بمثل هذا الثمن الخيالى ؟

ـ انى لن ابيعها بأى ثمن مهما بلغت قيمته .. ولهذا ارجو أن تنصرفى بسرعة قبل أن يحدق الخطر بى وبك

فاقتربت فضيلة منه ، وقالت هامسة بصوت كالفحيح :

ـ اتقول انك لن تبيعها بأى ثمن ؟ اذن اسمع .. انك اذا لم تبعها لى ، فسوف ترغم على بيعها لأسد الدين .. انه آت اليك بنفسه ليشتريها منك أو ليأخذها رغما عنك

فهتف صقر البحر مجفلا :

ـ اسد الدين ؟

ـ نعم .. اسد الدين بنفسه .. والآن أليس من الأفضل أن تعقد معى صفقة رابحة ، بدلا من أن تعقد صفقة خاسرة مع الباشا ؟

فهز صقر البحر رأسه وقال :

ـ انى لا أنوى أن أعقد أية صفقة .. هذه الجارية ليست للبيع

ـ هل ستستطيع مقاومة اسد الدين ؟ لسوف يأخذها منك رضيت أم لم ترض !

فرفع صقر البحر حاجبيه ، وقال وقد ادرك حقيقة هدفها :

ـ اذن فهذا هو سر نزولك .. انك تخشين أن يظفر بها اسد الدين ، ويتخذ منها زوجة أولى بدلا منك .. انك داهية يا فضيلة

فقالت فى غضب مكبوت :

ـ واذا صح هذا .. فما شانك انت ؟

ـ ان لى كل الشأن فى هذا !

فضربت فضيلة الأرض بقدمها ، وقالت :

ـ ان الوقت يجرى بسرعة ، ولابد أن نفرغ من هذه المسألة فى الحال .. اقول لك مرة اخرى انك اذا لم تبعنى هذه الفتاة ، فسوف يأخذها اسد الدين منك رغما عنك

فابتسم فى مكر ، وقال :

ـ واذا كان فى مقدوره ان يأخذها منى بسهولة ، اليس فى مقدوره ان يأخذها منك انت بسهولة اكثر ؟ اذن فلماذا تدفعين فيها هذا الثمن الباهظ مادامت النتيجة واحدة ؟

وهنا قالت له بصراحة افزعته :

ـ اتظن هذا ؟ انى حين اشتريها ، سارسل بها فورا الى قاع البحر .. انه سيثور ويغضب حقا ، ولكنه لن يلبث ان يهدأ ويستسلم لقضاء الله وقدره ، ثم يجد بين ذراعى واحضانى العزاء !

▱

وهكذا ادرك صقر البحر اخيرا الهدف الحقيقى الذى تسعى اليه ، والذى من اجله تريد ان تدفع هذا الثمن الباهظ . واحس فجأة انه كان احمق لأنه لم يدرك من قبل مثل هذا الهدف الواضح . لقد كانت فضيلة تريد ان تدافع عن مكانتها فى قصر الامارة بأى ثمن ، بالمال ، وبالقتل ..

وقال لها فى هدوء :

ـ انصرفى فى سلام يافضيلة لانى لن اسلم هذه الفتاة لك أو لغيرك سواء كان اسم هذا الغير اسد الدين او الشيطان !

فقالت بعد أن ادركت ان هذا هو قراره الأخير :

ـ ان تشبثك بها يدل على مبلغ مكانتها من قلبك .. فاذا كنت تنوى أن تتزوجها ، فافعل بسرعة . فالزواج سيكون الحاجز الوحيد الذى يصد اسد الدين عنها . انه متمسك بأهداب الدين .. وهو لا يستطيع بأية حال من الاحوال ان يرفع عينيه الى زوجة رجل مسلم من رعاياه . ولكن تأكد ان اى شىء غير رباط الزوجية لا يمكن أن يقف فى وجهه

فقال باسما بسخرية :

ـ وبذلك ايضا يتحقق هدفك الأساسى

ـ نعم ..

ـ اقسم انك اشد دهاء من الافعى يا فضيلة .. حسنا .. انصرفى لانى اسمع من بعيد ضجة تنبىء باقتراب موكب اسد الدين

واندفعت فضيلة الى شرفة القاعة ، وارسلت بصرها الى باب

الأوب حيث رات المشاعل التى يحملها أتباع الباشا وحراسه ، وحيث سمعت فى سكون الليل صيحاتهم .. فقالت متراجعة بسرعة :

ـ نعم .. انه اسد الدين . يجب ان انصرف بسرعة والا قتلنا نحن الاثنين اذا وجدنى هنا

ـ بكل تاكيد .. ولكن عليك ان تختبئى فى الفناء حتى يمر .. هل أحضرت معك أحدا ؟

ـ لا .. انى لا استطيع ان آمن على نفسى من اى شخص فى مهمة كهذه

ـ حسنا .. اسرعى بالانصراف

فقالت وهى تسرع نحو باب الخروج :

ـ حذار ان تتخلى عنها . . اتبع نصيحتى وتزوجها فالزواج هو الحاجز الوحيد الذى سيصده عنها

mersalli

الفصل الثانى عشر

فى مواجهة الأسد

ظل صقر البحر واقفا بعد انصراف فضيلة ، مستغرقا فى التفكير فيما سمع من فضيلة ، محاولا ان يجد مخرجا من هذا الموقف العصيب

وفيما هو كذلك ، اقبل تابعه على مهرعا ، واعلن عن وصول الباشا أسد الدين الذى لم يلبث أن دخل فى اعقاب على ، مما يدل على مدى لهفته ونفاد صبره

وقال الباشا لصقر البحر :

ـ سلام الله وبركاته عليك يا ولدى

ـ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا مولاى .. لقد شرفت بيتى

فقال الباشا وهو يتقدم الى وسط القاعة بعد أن لوح للاتباع والحراس بالوقوف فى الخارج :

ـ لقد جئت اليك فى رجاء يا ولدى

ـ لا تقل هذا يا مولاى .. فما عليك الا أن تأمر فتطاع

وهامت نظرات الباشا فى ارجاء القاعة حتى استقرت على وجه روزاموند ، فتألقت عيناه ، وأشرق وجهه ، وقال :

ـ لقد جئت على جناح السرعة كأى حبيب ولهان تسوقه خفقات القلب الى حيث يحب .. الى هذه الجوهرة الافرنجية التى جئتنا بها فى غزوتك الاخيرة . لقد كنت بعيدا عن القصبة ، عندما جاء ذلك الخنزير طازمانى قائلا انه لم يستطع شراءها . لقد كدت أبكى من فرط الحزن خشية أن تكون قد وقعت بين يدى رجل غريب .

ولكن حين علمت انها وقعت بين يديك ، عدات نفسى ، وسعد قلبى، وادركت انك لن تضن على بها يا ولدى

وكان واثقا من اجابة طلبه بحيث وجد صقر البحر ان من العسير عليه ان يصده فجاة ، ومن ثم آثر الصمت . وهنا قال اسد الدين :

ـ لسوف اعوضك عن خسارتها بالثمن الذى دفعته فى شرائها .. لسوف ازيدك الف جنيه ذهبا .. فما رايك ؟ .. اجب بسرعة، لانى اكاد اموت لهفة

فابتسم صقر البحر ابتسامة صارمة ، وقال :

ـ اننى ادرك لهفتك يا سيدى ، لانى اشعر بأقوى منها منذ خمسة اعوام متتالية .. ولكى اضع حدا لها ، قمت بهذه الرحلة الطويلة الخطيرة ، الى انجلترا

ـ اوه ، انك بارع فى المساومة يا صقر البحر .. حسنا .. اذكر الثمن الذى تريده لكى تنتهى من هذه الصفقة بسرعة

ـ مولاى .. اننى لا ابغى ربحا ، لانها ليست للبيع

فطرفت عينا اسد الدين ، وقال وهو لا يكاد يصدق اذنيه :

ـ ليست ... للبيع !

ـ نعم ولو دفعت لى فيها ولاية الجزائر كلها .. اطلب منى اى شىء آخر ، ولو حياتى ، وسوف ترى الى اى حد يبلغ اخلاصى وولائى . ولكن هذه ، فلا ..

ـ ولكننى لا اريد شيئا آخر .. اريد هذه !

ـ اذن التمس منك الرحمة والعفو ، وارجو ان تبحث لك عن جوهرة افرنجية اخرى

فقطب الباشا جبينه ، وقال بوجه مربد متجهم :

ـ اتتحدانى ؟ ..

ـ نعم ، للاسف !

ـ آه . فهمت .. فهمت .. يبدو ان فضيلة لم تكن مخطئة تماما فى آرائها عنك ، ثم اردف قائلا فى صرامة وحزم :

ـ تذكر يا صقر البحر ماذا كنت ، وكيف اصبحت .. تذكر افضالى عليك ، ورعايتى لك ، واعجابى بك ، واهتمامى بامرك . فهل جزاء هذا كله ان تتنكر لى ، وتتحدانى ؟!.. هلم يا ولدى ..

لسوف أنسى رفضك هذا ، ولسوف أعتبر أنك لم تقل شيئا أغضبني

فقال صقر البحر فى صوت كله التوسل والابتهال :

ـ بل انى ارجوك يا مولاى .. ابتهل اليك ان تطلب اى شىء الا هذه الجارية

ـ أمازلت مصرا على الرفض ؟ حذار يا صقر البحر .. حذار من غضبى . ان اليد التى استطاعت ان ترفعك من الوحل ، قادرة ان تعيدك اليه .. والى ما هو اسوأ منه !

ـ انني يا مولاى أتمسك بحقى شرعا وقانونا .. فاذا شئت ان تخرج عن حدود القانون والشريعة ، فافعل ما تشاء

فصاح الباشا هادرا :

ـ اذن لا بد لى ان انتزعها منك بالقوة

فانتصب صقر البحر فى وقفته ، وقال بصوت كله التحدى :

ـ لن تأخذها الا جثة هامدة ، والا بعد ان اغدو انا أيضا جثة هامدة

فزمجر الباشا قائلا وهو يستدير لينصرف :

ـ مهلا ايها الكلب العاق المتمرد .. لسوف ترى

وانصرف الباشا مسرعا . ووقف صقر البحر متسمرا فى مكانه برهة ، وقد ادرك ان اسد الدين أسرع الى القلعة ليأتى بعدد كبير من الجنود ليلقى القبض عليه

ولكن حزنه لم يكن على نفسه ، بقدر ما كان على روزا موند .. لقد ادرك انه تمادى فى الاساءة اليها باحضارها الى هذه البلاد لكى تغدو ضحية لاسد الدين . ومما زاد احساسه بالاسى والندم ، ادراكه اخيرا انه كان لها العذر كل العذر فى ظنها بانه قاتل اخيها ، لانها لم تكن تعرف انه اختفى من بلاده مخطوفا وليس هاربا

وفجأة سمعها تقول :

ـ لماذا تحدثه وابيت ان تسلمنى له ؟

فاستدار فى دهشة وفزع وقال :

ـ هل كنت تفهمين حديثنا ؟

ـ الى حد ما .. ان فيه كلمات فرنسية محرفة كثيرة جعلت

واضحا بعض الشيء . والآن ، لماذا ابيت ان تسلمني له مضحيا في هذا السبيل بسلامتك ومكانتك ؟

ـ او تسألين لماذا ؟

فقالت بمرارة :

ـ نعم .. الا اذا كانت شهوتك للانتقام جعلتك تضحي بكل شيء لكي تنتقم مني بنفسك !

فقال في اكتئاب شديد :

ـ اهذا هو رايك ؟

ـ هذا هو التبرير الوحيد لموقفك ؟

فهز راسه وقال بحرارة :

ـ انعرفين ما هو المصير الذي ينتظرك لو اني سلمتك لاسدالدين؟ ان ابسط شيء في هذا المصير هو ان تتعرضي لمؤامرات زوجته الاولى التي لن تستريح حتى تقضي عليك

فارتعدت روزاموند ، وقالت :

ـ ولكن .. من يدري ؟! لعل هذا اهون مما سألقاه على يدي صقر البحر او اوليفر ـ ريس !

ـ اذا كان هذا هو رايك ، فاذهبي اليه . انني لم اقاومه واتحداه لكي انتقم منك بنفسي ، وانما لانقذك من المصير الذي ينتظرك في قصره

فقالت في صوت ينم عن الفزع :

ـ أرأيت اذن مدى جنايتك علي باختطافك لي ؟

فتمتم في حيرة شديدة :

ـ ليس هذا وقت التانيب والاعتذار .. لابد لنا ان نجد وسيلة تنقذك من الوقوع في براثن اسد الدين

فقالت في سخرية وتهكم :

ـ لعلك ستعلن الحرب عليه ؟

ـ لا .. لا ..ان الناس هنا رغم حبهم لي واعجابهم الشديد بي ، لا يستطيعون ان يتمردوا على الباشا لانه يحكم البلاد باسم خليفة المسلمين

فقالت وقد عاد الفزع الى صوتها :

ـ اذن ماذا تنوي ان تفعل ؟

فراح يذرع القاعة جيئة وذهابا ، وهو يتمتم لنفسه فى اضطراب شديد ، وفجأة وقف وقال هاتفا :

ـ هناك مخرج من هذا الموقف العصيب .. انه الاقتراح الذى اوصتنى به فضيلة يدافع من حقدها وغيرتها .. يجب أن تتزوجينى

فهتفت بدورها فى استنكار شديد :

ـ أتزوجك . ؟ !

ـ نعم .. فهذه هى الوسيلة الوحيدة التى أستطيع بها انقاذك منه

ـ انها وسيلة ابشع من الغاية

فهتف فى غضب شديد :

ـ اذا لم توافقى فسوف تحملين الليلة الى حريم اسد الدين .. ولا يدرى أحد ان كنت ستصبحين زوجة له أم جارية . يجب أن تثقى بى ..

ـ كيف استطيع ان اثق بافاق مثلك .. بل واسوأ من الافاق ؟!

فكاد أن ينفجر ويقبض على عنقها لولا أن تمالك نفسه ، وقال :

ـ أتعيرينني بما صرت اليه بعد ان سمعت باذنيك منذ لحظات اننى برىء من دم اخيك ، واننى ضحية ارتيابك فى أمرى ورفضك الثقة بى . اتريدين هنا ان تكررى هذه المأساة فترفضى أن توليني هذه الثقة مرة أخرى ؟

فقالت فى عناد :

ـ مهما أصابك من ظلم ، فما كان هذا ليبرر استهتارك بعوامل الشهامة والرجولة ، وبدفعك الى اختطاف سيدة من اهلها لتوقع عليها العقاب . ان موقفك هذا لايتيح لأى انسان عاقل أن يثق بك

فاطرق برأسه خجلا ، ثم قال :

ـ اننى معترف بأنى تجاوزت حدود الشهامة بما فعلته معك . ولكن تأكدى انى لا اطلب ان تثقى بى من أجل منفعتى الخاصة ، وانما من أجلك أنت

وفجأة تناول الخنجر من حزامه ، والقى به اليها ، وقال :

ـ لقد حاولت بهذا الخنجر ان تقتلى نفسك الليلة . ويمكنك أن تعيدى الكرة اذا تبينت أننى لست اهلا لثقتك .. بل يمكنك

ان تقتليني به اذا رايت انني احاول ان اخدعك

فصمتت برهة ، ثم تناولت الخنجر ، وقالت :

ـ الا تخشى ان استعمله فى هذه اللحظة ؟!

ـ انني واثق منك .. وعسى أن تبادليني هذه الثقة حتى نخرج من هذا المازق . وانني اعطيه لك لكى تستعمليه فى لحظة اليأس فقط . أما طالما هناك أمل ، فلا داعى لمثل هذا الاجراء العنيف

ـ اى عمل تعنى ؟ أهو امل الحياة معك كزوجة ؟

ـ لا .. نقى بى وانا اقسم لك أن اصلح معك ما افسدته . غدا سوف ابحر بسفينتى فى غزوة جديدة ، وسوف احملك سرا عليها لانزلك على الشاطىء الاوروبى ، فى ايطاليا او فرنسا . ومن ثم يمكنك العودة بسلام الى انجلترا

ـ ولكننى فى هذا الوقت اكون زوجة لك

فابتسم فى مرارة ، وقال :

ـ امازلت ترتابين فى امرى ؟ ان قيود الزواج فى الاسلام غيرها فى المسيحية . يكفى ان اقول لك انك طالقة ، فتتحررين من كل قيد

ـ وكيف اضمن انك ستفعل هذا ؟

ـ ان معك الخنجر .. ويمكنك أن تفعلى بى او بنفسك مانشائين اذا تبين لك انى لا احفظ عهدى

فوقفت برهة فى تردد ، واخيرا قالت فى شىء من الاستسلام :

ـ وهذا الزواج .. كيف سيتم ؟ ومتى ؟ واين ؟

فشرح لها الامر قائلا ان الزواج فى الاسلام يصبح شرعا ، اذا اعلن الطرفان قبولهما للزواج امام شاهدين من الرجال . وهو يزداد توثقا من الوجهة المدنية اذا اعلن امام القاضى او رئيسه الاعلى وامام الشهود

وفيما هو يقوم بالشرح ، سمع همهمة الاصوات ووقع الاقدام ، ودقدقة حوافر البغال والجياد .. ثم راى وهج المشاعل فى فناء القصر ، ومن ثم قال بسرعة :

ـ هاهوذا أسد الدين قد جاء بقوة من جيشه .. هل توافقين ؟

ـ ولكن أين القاضى ؟
ـ قلت لك اما القاضى او رئيسه الاعلى ، واسد الدين يعتبر الرئيس الاعلى للقضاة هنا . وسوف يكون هو القاضى فى هذه المناسبة ، ورجاله هم الشهود
فهتفت فى خوف وعصبية :
ـ واذا رفض ؟
ـ اننى لن اطلب منه ذلك .. وانما سافاجئه واجعله امام الامر الواقع !
ـ ولكنه سيثور عندئذ غضبا .. وربما اوقع بنا اشد العقاب
ـ لقد فكرت فى هذا .. ولكن ...
ـ ان لدى الخنجر الذى استطيع ان انجو به منه
ـ وانا امام حبل المشنقة او السيف .. ولكن تجلدى .. انه آت
ولكن الذى دخل القاعة عندئذ كان تابعه على الذى قال بانفاس لاهثة :
ـ لقد عاد اسد الدين بقوة كبيرة من رجاله المسلحين
فقال له صقر البحر بكل هدوء :
ـ لا داعى للخوف يا على .. لسوف ينتهى كل شىء بخير

واندفع اسدالدين الى القاعة ومن ورائه بعض رجاله المدججين بالسلاح ، وغيرهم من حملة المشاعل . ووقف امام صقر البحر عاقدا ذراعيه على صدره ، رافعا راسه فى شموخ ، قائلا بصوت حاد صارم :
ـ لقد عدت ياصقر البحر لاستعمل القوة مادام اللين لم ينفع . ولكننى ارجو ان يكون الله قد اضاء قلبك ، وهداك الى سواء السبيل
ـ صدقت يامولاى .. لقد هدانى الله الى سواء السبيل
فصاح اسد الدين فى ابتهاج وقال ، وهو يبسط ذراعيه نحو روزامونده :

ـ حمدا لله .. الى اذن بالجوهرة الافرنجية .. اسرع بها الى ..

وتراجع صقر البحر خطوة ، ثم امسك بيد روزاموند وتقدم بها خطوتين كانما سيسلمها لأسد الدين ، ولكنه قال بصوت مرتفع :

ـ باسم الله العظيم ، وامام الله العليم بكل شيء ، وأمامك انت يا اسد الدين ، وفى حضور هؤلاء الشهود أعلن انى اتخذت هذه السيدة زوجة على سنة الله ورسوله ، وباذن الله الحكيم الرحيم

وندت عن اسد الدين شهقة الم واستياء ، واندلعت نيران الغضب من عينيه ، ولكن صقر البحر بادر قائلا :

ـ لينزل الله لعنته على كل من يحاول أن يستهين بشريعة النبى المرسل محمد ، وليصب الله على كل من يحاول أن يفرق بين زوجين ارتبطا امام الله والناس باقدس رباط !

وهنا تردد اسد الدين بين واجبه الدينى ، وبين رغباته العاطفية .. ومن ثم انتهز صقر البحر هذه الفرصة ، وقال :

ـ طالما كنت ترجو أن أتزوج لان الزواج متمم للدين .. وها قد شاءت ارادة الله ان ترسل الى الفتاة التى ارتضيتها زوجة لى

فاطرق اسد الدين برأسه ، وقال مستسلما :

ـ ماقدر يكون .. ومادامت هذه مشيئة الله ، فلا راد لمشيئته

ـ آمين ..

ووقف اسد الدين برهة كانما يريد أن يقول شيئا ، ولكنه لم يلبث ان استدار على عقبيه وأمر اتباعه قائلا :

ـ هلم الى الخارج

وتنهد صقر البحر فى ارتياح شديد

الفصل الثالث عشر

المفاجأة ..

ادركت فضيلة من الحالة التى رأت عليها أسد الدين بعد عودته من قصر صقر البحر أن هذا الاخير قد نفذ اقتراحها ، واستطاع بذلك أن يهزم اسد الدين ويعيده الى قلعته صقر البدين ، مكتئب السمات .. لايكاد يستقر على حال من فرط الحيرة والغضب

وانتهزت هذه الفرصة لتزيد من النار المتأججة فى قلبه ، ولتوغر صدره على صقر البحر .. فاقبلت عليه ، وركعت عند قدميه ، وراحت تستدرجه فى الحديث كأنما تواسيه ، حتى اذا تأكدت منه ان صقر البحر تزوج أمامه بروزاموند ، تظاهرت بالغضب والثورة ، وصاحت قائلة :

ـ كيف يفعل هذا ذلك الكلب الاجنبى الدخيل ؟! كيف يتحداك ويتخذ من هذا الزواج الصورى وسيلة لحرمانك مما يهفو اليه قلبك ؟ وكيف يامولاى رضيت بهذا الوضع ؟!

فنظر اليها أسد الدين فى ارتياب ، وقال :

ـ زواج صورى ؟

ـ نعم يامولاى .. الا ترى انه تزوجها فى حالة اضطرار وارغام ؟ .. لو كان يريدها زوجة له حقا ، لاعلن ذلك منذ اللحظة الاولى . ولكنه استغل طيبة قلبك وتمسكك بأهداب الدين وانتصر عليك !

ورأته ينهض فى غضب ، ثم يروح ويغدو حائرا ، واخيرا قال :

ـ لا .. لا أستطيع ان أجزم بذلك .. غدا سأعيد النظر فى هذا الأمر

وأوى أسدالدين الى فراشه ، وبانت فضيلة ليلتها عند قدميه كالقطة الاليفة ، ولكنها ظلت ساهرة ترقبه وهو يتقلب فى فراشه مؤرقا مضطربا ..

وماكاد مؤذن الفجر يفرغ من تسبيحاته حتى وثب اسد الدين من فراشه ، واسرع الى صلاة الفجر ، ثم أمر اتباعه ان يستعدوا للذهاب معه الى الميناء .. وهنا قالت له فضيلة :

ـ ماذا تنوى ان تفعل يامولاى ؟

ـ انني أرجو أن يهديني الله الى ماينبغى ان افعل

وأسرعت فضيلة الى ابنها مرزاق ، وهمست اليـــه بما يجب ان يفعل .. قالت له ان مصيره الآن قد اصبح بين يديه ، وعليه ان يتشبث به . واسرع مرزاق الى ابيه ، وقال له ضارعا :

ـ اصحبنى معك يا أبى .. أرجوك .. اتوسل اليك . حاول ان تجربنى

فابتسم الوالد فى اسى وقال :

ـ هل ضقت ذرعا بالحيـــاة ياولدى حتى تريد أن تمضى الى حتفك بتفسك وتحطم معك السفينة الحربية ؟

ـ انك تظلمنى يا أبى بعدم ثقتك فى !

ـ انك ياولدى مازلت غلاما .. وانى لاحبك هذا الحب الذى يجعلنى اخاف عليك من أهوال البحار ، وعلى كل حال يمكنك أن تأتى معى ، وسوف أنظر فى هذا الامر

وانطلق مرزاق بجوار ابيه الى الميناء ، وهو لا يكف عن التوسل اليه لكى يأمر بمرافقة صقر البحر فى هذه الغزوة

ولما وصلا الى الميناء بأتباعهما ومعهمـــا بسكاين ـ البراق ، مضيا الى السفينة الحربية التى كان العبيد والعمال يزودونها بكل مايلزم من مؤن وذخائر للغزوة ، وكان صقر البحر وتابعه على والكابتن لاى وعثمانى وغيرهم من ضباط السفينة واقفين فى المؤخرة ، يشرفون على عدد كبير من العمال كانوا يحملون سلة ضخمة مصنوعة من سعف النخيل المضفر ، الى الفراغ القائم فى مؤخرة السفينة . اما الفـــرنسى لاروك ، والايطـــالى فيجيللو ، فكانا يروحان ويغدوان بين الجداقين ، وهما ممسكان بالســـياط

يفرقعانها فى الهواء حينا ، ثم يقدمان الى كل جداف مشدود الوثاق قطعة من الخبز وكمية من الماء الممزوج بالنبيذ . وكان ليونيل قد اتخذ مكانه ، مقيد الساقين بالحديد ، بين الجدافين

ولما وصل اسد الدين ووراءه مرزاق وبعض الاتباع الى حيث وقف صقر البحر ، قال هذا له :

ـ سلام عليك وعلى آل بيتك ايها الحاكم العظيم .. اننا نوشك على الابحار ومن حسن حظنا انك جئت لتباركنا

فقال اسد الدين ، وهو يرمق صقر البحر بنظرات نافذة :

ـ لقد طلب الى الا اكتفى باسباغ البركة عليكم ، وانما بقيادتكم ايضا فى هذه الغزوة

فهتف صقر البحر قائلا فى دهشة :

ـ قيادتنا ؟! ..

ثم أرسل ضحكة استهتار خفيفة ، كأنما لايستطيع ان يصدق شيئا من هذا ، وقال :

ـ هل طلب اليك هذا ؟

وكانت تلك الضحكة الساخرة هى اكبر خطأ ارتكبه صقرالبحر فى تلك اللحظة .. ذلك لانها اضرمت فى أسد الدين روح التحدى ، وجعلته يقول وهو يتقدم ببطء نحو صقر البحر :

ـ لماذا تضحك ؟

فأسرع صقر البحر يقول بلا روية :

ـ من حماقة الذى طلب اليك هذا

ولكنه أدرك مدى مافى هذه الاجابة من حماقة ، فأسرع يقول ليصلح الامر :

ـ اعنى ان هذه الغزوة البسيطة غير جديرة بأن يترك من اجلها اسد الدين مهام الحكم ويشغل نفسه بها ، ويعرض حياته الثمينة للخطر . ان اسد الدين الذى خاض معارك بحرية اشتركت فيها عشرات السفن الحربية ، لايليق به ان يقود غزوة للاستيلاء على سفينة واحدة صغيرة الشأن .. مهما بلغت من القوة والتسلح

فقال أسد الدين ساخرا :

ـ ولكن عجبا ! ما الذى جعلك تغير رأيك بين يوم وليلة ؟

ـ رايى يامولاى ؟

فقال أسد الدين يذكره :

ـ اجل .. الم تلح على امس ، فى سوق العبيد ان أتولى قيادة هذه الغزوة ؟ الم تذكرنى بنفسك بايام مجدى على سطح البحار ، وبالانتصارات الرائعة التى احرزناها معا ، جنبا الى جنب ، ضد اعداء الدين !

ثم أردف قائلا وهو يبسط يديه والغضب يتجمع فى عينيه :

ـ فما معنى هذا التغير ؟ ولماذا ترجع عن رايك ؟

وتردد صقر البحر وقد أسقط فى يده .. واشاح بوجهه قليلا وقد لمح بطرف عينه وجه مرزاق الوسيم ، ووجوه عثمانى وبسكابن ـ البراق وبعض الحراس ، وهم ينظرون اليه فى دهشة واشفاق .. حتى الجدافين فى مقاعدهم ، راحوا يتطلعون الى مايجرى امامهم فى شىء من الفضول

وقال صقر البحر ، وهو يحاول ان يبتسم :

ـ كنت أعلم انك سترفض قيادة مثل هذه الغزوة التافهة .. لانى فى الحقيقة لم اكن اتوقع ان تترك مهام الحكم للخروج الى البحر فى غزوة بسيطة كهذه

وأرسل مرزاق ضحكة استهتار خفيفة .. وشعر أسد الدين ان هذا الموقف المضطرب من جانب صقر البحر ينم عن امور غير طبيعية سوف تجرى فى هذه الغزوة ، وان واجبه من ثم ان يتولى قيادتها حقا .. لذلك قال فى حزم :

ـ يبدو لى انك لاتريدنى معك .. واذا كان الامر كذلك ، فان هذا من سوء حظك ، لانى قررت فعلا ان أتولى قيادة هذه الغزوة ، وسيكون مرزاق ضابطا مساعدا لى فيها

ولم يقل صقر البحر شيئا ، وانما حيا بيديه ، وقال وهو ينصرف بصوت يكاد ان تكون فيه نبرة سرور :

ـ حمدا لله .. مادام هذا قرارك ، فليس لى ان اعترض ، ولماذا اعترض على شىء انا الرابح فيه ؟!

الفصل الرابع عشر

سلة الخوص

بعد ان اتخذ اسد الدين قراره ، انفرد بعثمانى واصدر اليه التعليمات الخاصة بشأن ماينبغى ان يفعله اثناء غيبته فى تلك الغزوة .. وانصرف عثمانى عن السفينة لينفذ هذه التعليمات ، ثم اصدر اسد الدين امره بالابحار ، وفرقعت السياط على ظهور الجدافين ، فانطلقت السفينة بقوة المجاديف الهائلة . ولما كانت الرياح تهب بقوة من الصحراء ، فقد ساعدت ليونيل فى ذلك اليوم ، وجعلته يحتمل العمل على مجدافه . ولولا هذا ، لقضى نحبه بعد ساعات

وظلت السفينة تجرى على سطح البحر الساعة بعد الاخرى فى طريقها نحو جزائر البليار . وكان اسد الدين ومرزاق يجلسان تحت ظلة فاخرة فى مقدمتها ، بينما تجمع المحاربون على مسافة يسيرة يتبادلون الاحاديث والفكاهات والضحكات . اما صقر البحر ، الذى عهد اليه بالاشراف على توجيهها ، فقد جلس فى المؤخرة ، بالقرب من سلة الخوص الضخمة ، مطرق الرأس ، مستغرقا فى افكاره

ورفع راسه فجاة ، حين سمع اسد الدين يقول له :

ـ لاتظن ياصقر البحر ان ماحدث بينى وبينك ليلة امس هو السبب فى قيادتى لهذه الحملة .. لقد قررت هذا لانى رايت ان من واجبى نحو ابنى مرزاق ان ادربه على ركوب البحار ، وعلى القتال

وبدا لصقر البحر ان اسد الدين يحاول ان يعتذر اليه .. ولكنه تساءل فى ذات نفسه ، لماذا يعتذر اليه وهو يملك النفوذ

الذى يتيح له أن يفعل ما يشاء دون حاجة الى اعتذار ؟

واومأ براسه أخيرا وقال :

ـ سيدى .. ليس لى ان اسالك عن القرارات التى تتخذها ، فان لك الامر ، وعلينا الطاعة

فقال اسد الدين متنهدا :

ـ اهكذا ؟! اذن لماذا عصيت اوامرى امس ؟ لماذا هزمتنى بزواجك من الجوهرة الافرنجية ؟ انى على كل حال احترم هذا الزواج وان كان صوريا ، ولا يأس من ان ننسى ماحدث ونعود أصدقاء

ـ شكرا يامولاى ... لقد كنت اخشى ...

ـ كفى .. انك لاتخشى شيئا .. وهذا مايجعلنى احبك كابن

ولكن مرزاق ، الذى كان قد انضم الى ابيه ، قال وقد ساءه ان يصلح الامر بينهما :

ـ كيف تقبل عروسك أن تبقى بمفردها الآن فى ليلة زفافها ؟ ترى ماهو شعورها ؟

فقال صقر البحر :

ـ انى لا أعرف ، لأن خبرتى بالنساء ضعيفة

فقال مرزاق فى الحاح ثقيل :

ـ ترى أين وضعت عروسك ريثما تعود من هذه الغزوة ؟

ـ فى بيت الزوجية طبعا !

ـ انى أعجب لقوة ارادتك التى جعلتك تهجر أحضان زوجتك بمثل هذه السرعة

فقال والده فى لهجة تأنيب :

ـ ولماذا تعجب وواجب المسلم الصادق ان يضحى بشهواته الخاصة من اجل واجباته نحو دينه وبلاده ؟

وحاول مرزاق أن يتمادى فى اقواله ، ولكن والده نهره قائلا :

ـ كفى .. لاتطلق لسانك الحاد على صقر البحر . ولنسأل الله أن يجعل التوفيق حليفنا فى هذه الغزوة

وقال صقر البحر متنهدا :

ـ آمين

ولم يشعر صقر الدين بالاطمئنان بعد هذه المحادثة . ولم يدر هل كان اسد الدين مخلصا فى رغبته للصلح ، أو ان وراء حديثه هذا هدفا غامضا يريد أن يحققه ؟

وقد ازداد شعوره بالقلق بعد ظهر اليوم نفسه ، عندما انضم اليه مرزاق اثناء وقوفه بجانب حاجز السفينة يتفرج فى كسل على تقديم وجبة الغداء للجدافين . وبعد برهة من الصمت ، اشار مرزاق الى سلة الخوص الكبيرة الموضوعة فى فراغ المؤخرة ، وقال :

ـ أليس من الافضل أن توضع هذه السلة فى مخزن السفينة حتى لاتكون عقبة فى طريق المحاربين اثناء المعركة !

واحس صقر البحر بيد باردة تعتصر قلبه . وانعقد لسانه برهة من فرط الاضطراب ، ولكنه تمالك نفسه بسرعة ، وقال وهو يحاول الابتسام :

ـ انني افهم يا مرزاق انك معنا فى هذه الغزوة كتلميذ محتاج للخبرة والمران ...

ـ نعم .. وماذا فى هذا ؟

ـ يحسن بك أن ترى وتلاحظ وتتعلم ، والا فسوف اجدك فى المرة التالية تصدر الى تعليماتك فى فنون الملاحة والقتال .. !

وقبل ان يرد مرزاق ، اشار صقر البحر الى خط بعيد فى الافق واردف قائلا بسرعة :

ـ هاهى ذى جزائر البليار قد بدت .. اننا نتقدم بسرعة ، ولو ظللنا على هذا المعدل ، فسوف نبلغ راس اجويلا مع غروب الشمس ، واعتقد ان هذا سيكون رقما قياسيا

وبدا على مرزاق انه غير مهتم بهذا الامر .. ومن ثم هز كتفيه ، ومضى الى ابيه تحت الظلة الفاخرة ، وجلس بجواره على السجادة الوثيرة ، ثم بدا الحديث معه عن صقر البحر ، ولكن اباه امره بالكف عن هذا الحديث ، ومن ثم لم يستطع الشاب ان يقول له ماكان يدور بنفسه

اما صقر البحر ، فقد اسرع الى فيجيتللو فى اضطراب حيث وجده واقفا فى مؤخرة السفينة ، وقال له :

ـ هل افشى السر احد يا فيجيتللو ؟
ـ اى سر ياسيدى ؟
ثم ارسل نظرة خاطفة الى السلة الكبيرة ، واردف قائلا :
ـ اتعنى سر هذه السلة ؟ لا .. هذا مستحيل .. لو كان اسد الدين يعرف سرها لكشفه قبل أن نبحر ، او لاستعان بعدد اكبر من الحراس
ـ وما حاجته الى الحراس يافيجيتللو ؟ اذا حدث ووقعت الواقعة بينى وبينه ، فان المحاربين جميعا سوف ينضمون اليه لانه ، شرعا ، ولى امرهم الذى تجب عليهم طاعته
فابتسم فيجيتللو ، وقال :
ـ اتظن هذا ؟ اذن فاعلم ان هؤلاء المحاربين لايعرفون رئيسا غيرك .. انهم رجالك الذين تبعوك فى سلسلة المعارك الاخيرة ، والذين دفعت بهم الى النصر دائما . ليس بينهم الا عدد قليل من الذين سبق لهم العمل تحت امرة الباشا
فهز صقر البحر كتفيه ، وقال :
ـ ولكن النزعة الدينية تغلب عليهم عادة فى مثل هذه المواقف .. ولهذا اريد منك أن تجوس خلالهم وان تعرف اهواءهم ، وان تتبين حقيقة موقفهم اذا حدث ان وقعت الواقعة بينى وبين اسد الدين
ففمز فيجيتللو بعينه وقال :
ـ اطمئن .. لسوف آتيك بالخبر اليقين بعد حين

وفيما كان صقر البحر يمضى ببطء فى وسط السفينة ، راى ليونيل مقبدا فى مقعده ، وكان على الحافة ، يعمل على المجداف ، وفوق ظهره آثار السوط الدامية .. فتوقف أمامه وقال له بالانجليزية :
ـ لقد ذقت كما يبدو طعم السوط . ولكن هذا لايعتبر شيئا بجانب ماسوف تلقاه فيما بعد . من حسن حظك أن الريح اليوم مواتية . ولكن انتظر عندما تركد الريح ، ويقع عليك وعلى زملائك عبء تسيير السفينة . عندئذ ستذوق شيئا مما ذقته انا ستة

اشهر متوالية

فنظر ليوئيل اليه بوجه معروق شاحب ، وحاول ان يصب على اخيه سيلا من اللعنات ، ولكنه ادرك فجاة ان مايعانيه ليس الا جزاء عادلا على ماجنت يداه فى حق هذا الاخ . واخيرا قال

ـ انني لست مهتما بامر نفسي قدر اهتمامي بروزاموند . ماذا فعلت بها ؟

فقال اوليفر متهكما :

ـ هل يدهشك انني قمت بدور السيد المهذب وتزوجتها ؟

فشهق اخوه وقال بوجه مربد :

ـ تزوجتها ؟ ايها الكلب الغدور ؟

ـ لماذا تشتمني وقد كان فى مقدوري ان افعل بها ما هو اسوأ من هذا

ثم انصرف عن اخيه تاركا اياه يتلوى عذابا لمجرد التفكير فى هذا الذى سمعه دون ان يعرف انه نصف الحقيقة فقط

وبعد ساعة ، عندما ازدادت شواطىء جزر البليار وضوحا ، التقى صقر البحر مع فيجيتللو مرة اخرى فى وسط السفينة ، وتبادلا العبارات ..

قال الايطالى :

ـ تبين لى أن المحاربين ينقسمون على انفسهم فى هذا الامر .. فان عدد الذين سيقفون معك يكاد يساوى عدد الذين سيقفون مع اسد الدين ، ولهذا اتصح بالا تتهور فى الخصومة معه

ـ ليس من المحتمل ان افعل هذا .. بل انني لااريد ان اشتبك معه فى اية خصومة مهما يكن السبب

وازداد القلق فى نفس صقر البحر ، وارسل نظرة خاطفة الى سلة الخوص الضخمة التى اختفى فيها روزاموند . ولم يكن يتوقع حتى آخر لحظة ان اسد الدين سيفاجئه ويتولى قيادة هذه الغزوة . ومن ثم استبدت به الحيرة ولم يدر ماذا يفعل ؟ انه لايستطيع أن يتركها فى هذه السلة بلا طعام او شراب اكثر مما فعل . وفى الوقت نفسه لم يكن يدرى كيف يخرجها من السلة دون أن يفطن احد اليها ، بل لم يكن يدرى كيف يقود السفينة الى أقرب شاطىء أوروبى لينزلها فيه دون أن يستولى

على السفينة ويفرض ارادته على جميع من فيها
وقرر أن يترك هذا الامر للاقدار ، عسى أن تقع معجزة تنقذه وتنقذ روزاموند من هذا الموقف العصيب

وظل مستغرقا فى افكاره وهو يذرع مؤخرة السفينة جيئة وذهابا قبل غروب الشمس بساعة ، وكان قد مضى على السفينة منذ ابحارها نحو خمس عشرة ساعة ، وكانت قد توقفت تحت ظلال صخور راس اجويلا ، امام عنق الزجاجة البحرى المؤدى الى خليج صغير فى الجانب الشرقى من جزيرة فور منتيرا

وفيما هو مستغرق فى افكاره ، سمع صوت اسد الدين يأمره بقيادة السفينة الى ذلك الخليج الصغير الذى طالما اتخذه كل منهما مكمنا يتربصان فيه للسفن العابرة ، أو يقضيان فيه الليل

وتمت عملية قيادة السفينة بنجاح الى داخل الخليج البحرى ، حيث ألقت مراسيها بجوار الشاطىء الصخرى المهجور الا من بضع عنزات برية كانت ترعى الكلأ على صخوره ومرتفعاته

وبعد ذلك اوفد صقر البحر احد رجاله الى قمة المرتفعات الصخرية ليرقب من فوقها سطح البحر على مسافة واسعة من جميع الاتجاهات ، وليحذر صقر البحر من اية سفينة تقترب من عنق الزجاجة

وفى مقدمة السفينة ، راح اسد الدين يذرع المكان جيئة وذهابا وهو يسرد على ابنه مرزاق ذكريات مغامراته البحرية ، والانتصارات التى احرزها فى جميع معاركه ضد السفن بوجه عام ، والسفن الاسبانية بوجه خاص

وقال مرزاق اخيرا :

ـ حمدا لله أنك يا أبى قد توليت أمر هذه الحملة ، والا لما اهتم احد بالتربص فى هذا الخليج

ـ لا يا ولدى .. ان صقر البحر يعرف هذا المكمن ، ولا شك انه ما كان ليتردد فى التربص داخله حتى تمر السفينة الاسبانية

فهز مرزاق كتفيه وقال :

ـ اعتقد انه ما كان ليهتم بأمر السفينة الاسبانية حتى لو مرت

أمامه على مسافة امتار .. ان هناك ما يشغل فكره ، ويقلق باله ، انظر اليه يا ابى كيف يروح ويجىء وهو لا يكاد يشعر بشىء مما يجرى حوله ؟

ـ غفر الله لك .. اهكذا دائما لا ترى الا الشر فى كل شىء يصدر عن صقر البحر ؟ حقا لقد ورثت عن امك كراهيته

ـ يبدو لى انك يا ابى نسيت ما حدث ليلة أمس !

ـ لا لم أنس .. ولكن ما دامت مشيئة الله قد جعلتنى اميرا على الجزائر ، فلا بد لى ان احكم بالعدل والانصاف . هلم يا مرزاق .. غدا سوف تراه فى خضم المعركة ، ولعل منظر بسالته سوف يملأ قلبك بحبه وبالاعجاب به . تعال لكى أصلح ما بينكما حتى تسود علاقتكما السلام والوئام

ثم رفع صوته واستدعى صقر البحر اليه .. فلما اقبل هذا مسرعا ، وقف مرزاق ساخطا مقطب الجبين ، ومن ثم قال منهكما لصقر البحر :

ـ هل انت منزعج يا صقر البحر مما سيحدث غدا من قتال عنيف ؟

فرد صقر البحر قائلا :

ـ أمثلى ينزعج من القتال أيها الغلام المسالم ؟

ـ اذن ما الذى يشغل بالك الى هذا الحد ؟

ـ وهل تعتقد ان المعركة هى التى تشغل بالى ؟

ـ ماذا يكون اذن ؟!

ـ يبدو انك ستقول لى بعد لحظة اننى خائف .. حسنا .. انتظر غدا لترى كيف يكون موقفى بين رائحة الدم والبارود

وجذب هذا الموقف بعض ضباط من حرس الباشا وعلى رأسهم بسكابن ـ البراق ، فوقفوا وراء مولاهم ينصتون ، وقد علت شفاههم البسمات . أما اسد الدين فقد قال :

ـ نعم يا مرزاق .. غدا سوف ترى وتسمع وتشم بنفسك انك مازلت حدثا فى حاجة الى مثل هذه التجارب لتعرف اقدار الرجال

فقال مرزاق وهو يلوى شفتيه :

ـ حتى انت يا ابى تعيرنى بقلة خبرتى وتجاربى . ولكن .. اننى لا اسمح لاحد ان يعيرنى على الاقل بقدرتى على اصابة الهدف

فقال صقر البحر فى لهجة تجمع بين التهكم والمرح :

ـ افسحوا له المجال لنرى معجزات الرمى

فرمقه مرزاق بقسوة ، وقال :

ـ هات سهما وقوسا وسوف ترى كيف اصيب الهدف

فضحك اسد الدين ، وقال :

ـ ارجو يا مرزاق الا تصيب قرص الشمس

ـ لا تهزا بى يا ابى .. لسوف ترى بنفسك

ثم صوب فجاة سهمه الى سلة الخوص فى الجانب الاخر من السفينة ، وقال :

ـ انظروا الى سلةالخوص هذه.. ان فى جانبها المواجه لنا بقعة سوداء لا تكاد العين المجردة ان تراها من هذا المكان . ولكنى سأخترقها بسهمى ..

مارايك ياصقر البحر ؟

فشحب وجه صقر البحر بشدة ، ولكنه امسك بمعصم مرزاق فى قوة وقال هادرا :

ـ اننى امنعك من ان تصيب هذا الهدف

ـ لماذا ؟ !

ـ لانى اريد هذا

وتظاهر مرزاق بالموافقة ، ثم وجه سهمه نحو شجرة على الشاطىء الصخرى ، وسار صقر البحر قليلا وانحنى ليلتقط سهما وقوسا من احد المحاربين ، وفى تلك اللحظة سمع صيحة فيجيتللو المحذرة . فاستدار بسرعة البرق ، ورأى مرزاق يصوب سهمه مرة اخرى نحو سلة الخوص ، وبأسرع من طرفة العين كان سهم صقر البحر مصوبا الى صدر مرزاق ، وهو يقول له :

ـ اقسم بالله لو انك اطلقت سهمك على هذه السلة ، لاغمدت سهمى فى قلبك يا مرزاق يا ابن اسد الدين

وتسمر الجميع فى اماكنهم من فرط الدهشة والانفعال . اما مرزاق ، فقد ابتسم فى خبث ، وقال وهو يلقى بالقوس من يده :

ـ هذا ما كنت أريد أن اتاكد منه .. لقد فضحت نفسك بنفسك

وقال اسد الدين فى عجب ، وتساؤل :

ـ ما معنى هذا ؟ .. ماذا جرى لك يا صقر البحر ؟ كيف تهدد حياة ابنى من اجل سلة خوص ؟

فقال صقر البحر مضطربا :

ـ انى احتفظ فيها بمواد ثمينة جدا لا احب ان يفسدها غلام غر بطيشه واستهتاره

فقال اسد الدين متهكما :

ـ مواد ثمينة ؟ .. لابد انها ثمينة حقا لانك تجعلها مساوية لحياة ابنى الوحيد .. دعنا نرى هذه المواد لنعرف هل هى ثمينة حقا ؟

ثم صاح فى بسكاين ـ البراق آمرا :

ـ افتح هذه السلة وهات ما فيها الينا

فهتف صقر البحر وهو يضع يده على ذراع اسد الدين :

ـ مهلا يا مولاى .. ان هذه السلة ملكى ، وان كل مافيها ملكى ايضا . وعلى هذا فليس من حق احد ايا كان ان

فهتف الباشا بدوره فى غضب متزايد :

ـ أتتحدث عن الحقوق امامى ؟.. انا سيدك ومولاك ؟ افتحوا هذه السلة فورا

وسرعان ما رفعت الحبال عن السلة ، واذا غطاؤها يرفع ، واذا الذين رفعوا الغطاء يتسمرون فى اماكنهم وقد بدا عليهم الفزع مما راوا

وصاح اسد الدين بصوت كالزئير :

ـ ماذا اصابكم ؟ ماذا وجدتم فى السلة ؟

وكان صقر البحر قد تقدم عندئذ ودفع الجميع بعيدا عن السلة ، ثم عاون روزاموند على الخروج منها ، ووقف بجانبها فى كل جراة واستبسال

الفصل الخامس عشر

استبداد الحب

وقف اسد الدين برهة ، يحملق وهو معقود اللسان من فرط الدهشة والعجب ، وتحولت عوامل الدهشة والعجب الى غضب ثائر ، حين ادرك انه كان ضحية خداع الرجل الذى احبه ووثق فيه .. الرجل الذى طالما انب فضيلة من اجله واساء اليها وصب عليها سخطه وغضبه

وراح يتقدم بخطوات بطيئة ، وقد اتقدت عيناه بنيران الغضب ، ثم قال لصقر البحر بصوت كالفحيح :

ـ اذن فهذه هى المواد الثمينة التى تخشى عليها ايها الكلب .. ما معنى هذا ؟

فقال صقر البحر بصوت كله التحدى :

ـ انها زوجتى .. ومن حقى ان اصحبها معى اينما اذهب

ثم تحول اليها وطلب منها أن تسدل النقاب على وجهها ، فاطاعت فورا بأنامل ترتجف .. وقال اسد الدين :

ـ لا أحد ينازعك فى هذا الحق .. ولكن لماذا لا تصحبها علانية مادمت تريد هذا ؟ لماذا تخفيها فى مثل هذه السلة ؟ اهذا يليق بزوجة صقر البحر ؟ لماذا اردت تهريبها على هذا النحو ؟

وقال مرزاق :

ـ ولماذا كذبت على حين سألتك عن مكان اقامتها فقلت انها فى بيت الزوجية بالجزائر ؟ !

فقال صقر البحر فى ترفع وكبرياء :

ـ فعلت هذا كله لانى خشيت ان يحال بينى وبين اخذها معى

فقال أسد الدين ووجهه العجوز يضطرم تحت نظرات صقر البحر الحادة :

ـ وما السبب فى هذه الخشية ؟ .. انه لا يوجد رجل عاقل يركب البحر فى مغامرة كهذه ، ثم يأخذ معه عروسه فيعرض حياتها للخطر أو يعرضها للوقوع فى الاسر !

ـ ان الله الذى حمانى فى الماضى ، قادر على أن يحمينى الان وفى المستقبل

فهتف أسد الدين فى غضب قائلا :

ـ لا تذكر اسم الله على لسانك الرجس ! .. انك حملتها سرا حتى لا تنكشف حقيقة اهدافك .. فما هى اهدافك الحقيقية ؟ تكلم !

وبعد برهة من الصمت ، قال صقر البحر :

ـ ان حقيقة اهدافى ، اذا شئت ان تعلم ، هى ان انزلها على اية بقعة من الشاطىء الاوربى واتركها تمضى بسلام الى بلادها . وبعد ذلك أهاجم السفينة الاسبانية ، وانا واثق من النصر باذن الله

فصاح مرزاق قائلا :

ـ ماهذه الاكاذيب يا أبى ! .. كيف يريد ان يتخلص من الفتاة التى تزوجها فى الليلة الماضية ؟ .. اهناك من يعقل هذا ؟

فتمتم أسد الدين قائلا :

ـ أجل ؟ .. هل تستطيع أن تجيب على هذا السؤال ؟

فقال صقر البحر :

ـ لسوف اذكر لكم الحقيقة كاملة

فرد مرزاق متهكما :

ـ الحمد لله !

واستطرد صقر البحر يقول :

ـ ولكننى احلركم بأن هذه الحقيقة قد تبدو لكم اغرب من اية خيالات او اكاذيب .. لقد احببت هذه الفتاة منذ سنوات طويلة ، وانا مازلت فى وطنى . وقد كان من الممكن ان اتزوجها لولا أن تدخلت فى الامر ظروف وعوامل ومؤامرات اساءت الى سمعتى أمامها ، فغادرت البلاد وانا اكن لها الحقد والكراهية . وفى الليلة الماضية ،

تبينت ان الحب الذى كنت اظنه تحول الى كراهية واشمئزاز لا يزال كما كان ، حبا قويا خالدا لا سبيل الى التخلص منه أو التحرر من استبداده ، وقد جعلنى هذا الحب اشعر انى اسأت اليها باختطافى لها ، فقررت ان اصلح الامر ، وان اعيدها الى وطنها سالمة

وصمت بعد ذلك .. ولكن اسد الدين قال متهكما :

ـ منذ متى يعمل الرجل على الخلاص من المرأة التى يحبها ؟

ـ الم اقل لكم ان هذه الحقيقة قد تبدو لكم جد غريبة ؟

وقال مرزاق :

ـ اليس من الواضح يا ابى ان هذا الزواج صورى ؟

ـ نعم يا ولدى .. هذا واضح جدا .. انه لم يتزوجها الا ليسخر منى ويصدنى عن هذه الجوهرة الافرنجية . انه يستغل سماحة الدين لاغراضه الخاصة

ثم التفت الى فيجيتللو ، وقال آمرا :

ـ فيجيتللو .. اقبض على هذا الخائن وضع القيد فى يديه

وصاح مرزاق فى ابتهاج :

ـ ان السماء تبارك لك هذا القرار يا ابى

ولكن صقر البحر صاح رافعا يده الى فيجيتللو الذى لم يكن فى الحقيقة قد تحرك من مكانه :

ـ قف فى مكانك ولا تتحرك

ثم التفت الى اسد الدين ، واردف قائلا :

ـ ان هذا القرار قد يؤدى بك وبابنك الى السماء

ثم اقترب منه بحيث لم يكن صوته يتجاوز الواقفين وراء الباشا اما روزامونده فقد ارهفت اذنيها لتلتقط كل كلمة تقال :

ـ انظن يا اسد الدين انى ساستسلم لك استسلام الحمل للجزار ؟ فكر فى مركزى جيدا .. فلو انى رفعت صوتى وناديت على صقور البحر من اتباعى ، فلا يعلم احد غير الله كم سيتبقى لك بعد ذلك . هل تحبان تضع الامر موضع التجربة ؟

فهتف اسد الدين بصوت مختنق :

ـ ايها الخائن الـ

ـ لا .. لو كنت خائنا كما تزعم لانتهزت هذه الفرصة منذ بدء الرحلة ، واعلنت عليك حالة العصيان . ومن ثم دع صمتى يدل على ولائى .. ولا تلق بالا الى اقوال هذا الغلام الاحمق

وقال مرزاق :

ـ ابى .. حذار ان تنخدع بكلماته

وصاح اسد الدين فجأة :

ـ اسكتوا جميعا ..

وراح الباشا يفكر بسرعة .. ورأى انه امام موقفين لا ثالث لهما! اما ان يتمادى ويأمر بالقبض على صقر البحر ، فيجد من يطيعه وينتصر ويظفر بالجوهرة الافرنجية ويتخلص من هذا الغريم القوى .. واما ان يفشل فى تحقيق هذا الهدف ، ويقع فريسة سهلة لصقر البحر .. بل وربما ضيع فى هذه المغامرة امارة الجزائر كلها

وانتهى اخيرا الى ان خير ما يمكن ان يفعله فى مثل هذا الموقف ، هو أن يتريث حتى يطمئن الى مكانته ، والى مبلغ ولاء المحاربين فى السفينة له

وصاح اخيرا يقول لصقر البحر :

ـ لسوف افكر فى كلماتك هذه ، ولن اكون ظالما .. وانما اسأل الله أن يلهمنى الصواب

بعد انصراف الباشا وابنه عن المكان ، وقف صقر البحر برهة يرنو الى روزاموند فى صمت ، غير حافل بالمحاربين الذين كانوا يحملقون اليها ، ولا بالجدافين الذين اثار الموقف فضولهم وايقظهم من بلادتهم ، وجعلهم يشرئبون بأعناقهم ليشاهدوا صقر البحر وهذه الافرنجية الحسناء

وكان صقر البحر قد رأى أن ما حدث حتى تلك اللحظة ، هو اهون ما يمكن أن يحدث فى مثل تلك الظروف .. فقد كان يدرك انه لم يكن ليستطيع ان يجعلها طيلة الليل داخل السلة . ولم يكن هناك مكان يتيح له فرصة اخفائها دون أن يراها احد . كما كان الشاطىء صخريا على مسافة اميال متتابعة ، اى كان من المستحيل

انزالها عليه ، وتركها لمصيرها فى تلك البرارى

وافاق من افكاره على صوتها ، وهى تقول له وقد بسطت يديها اليه :

ـ والآن .. ماذا بعد ؟ !

فقال بهدوء :

الان ! علينا أن نحمد الله على خلاصك من هذه السلة التى لم تكن تتناسب معك ومع راحتك . وهلم الان الى خيمتى الخاصة التى كنت قد اعددتها لك قبل ان يفاجئنا اسد الدين بحضوره معنا .. هلم

ثم أشار الى خيمة مربعة الشكل كانت مفروشة من الداخل بالسجاد الفاخرة ، والحشايا والوسائدالحريرية ومزودة بكل مايلزم لاقامة سيدة كريمة مترفة

ولما ترددت برهة ، وهى ترسل نظرات خوف الى بسكاين ـ البراق ، ومن معه من الضباط . قال لها مشجعا :

ـ تعالى .. لا تخافى شيئا

ـ كيف لا اخاف ؟

ـ نعم .. ليس ثمة ما يدعو الى الخوف فى الوقت الحاضر على الاقل . اما ماسوف ياتى به المستقبل ، فلا صلة لنا فيه .. ولكننى اقول ان الخوف لا يجدى شيئا

وسارت معه نحو الخيمة التى كان أسد الدين قد احتلها . . وهناك قال أوليفر للباشا الذى لم يكن يرفع عينيه عن قوام روزاموند الفاره ، وكأنه لا يرى فى الدنيا غيرها :

ـ اسمح لى يا مولاى أن اضع تحت تصرف زوجتى هذه الخيمة التى كنت قد اعددتها لها قبل ان تشرفنا بقرارك فى الحضور معنا

فافسح أسد الدين له الطريق فى شىء من الازدراء والغضب المكبوت ، ودخل صقر البحر مع روزاموند الى الخيمة الفاخرة ، حيث اشار الى متكأ جميل ، وقال :

ـ هذا مكان جلوسك ونومك ياروزاموند

ثم امر تابعه ابيض ان يحضر الطعام الذى اعد لها . وسرعان

ماعاد التابع يحمل صحفة عليها دجاجة محمرة ساخنة وبعض الخبز والارز والجبن والشراب

وتهالكت روزاموند على المتكأ فى اعياء .. ولكن صقر البحر قال لها مشجعا :

ـ اطمئنى وكلى .. فان التقاليد الاسلامية تحرم مكان حريم المسلم على كل اجنبى دخيل ، وكأنه قلعة مقدسة لا يجوز اقتحامها بغير اذن

ولما هزت راسها قائلة انها لا تشعر بشهية الى الطعام ، قال :

ـ لا .. انك احوج ما تكونين الى الطعام لتتزودى بالقوةاللازمة لمواجهة ما تاتى به الاقدار

ـ ما جدوى القوة والشجاعة فى هذا الوقت الذى نعانيه الان ؟

ـ لا تقولى هذا .. لقد تعهدت ان اعيدك الى الوطن سالمة مهما لاقيت فى هذا السبيل من اهوال .. وتاكدى اننى سافى بعهدى

فهتفت قائلة فى جزع :

ـ كيف يمكن هذا وقد ضاعت منا كل فرصة للهرب ؟

ـ طالما انى على قيد الحياة فالفرصة موجودة حتما

فنظرت اليه مليا ، ثم ابتسمت فى اسى ، وقالت :

ـ اتظن ان حياتك ستطول بعد الذى جرىبينك وبين الباشا ؟

ـ سوف تطول بقدر ما يريد الله ، وان ما قدر سيكون .. واني اعتقد انى سأعيش حتى اعيدك سالمة الى الوطن . وبعد ذلك .. حسنا ، لقد عشت طويلا حتى لم أعد اخشى الموت

فاطرقت براسها ، وراحت تشبك يديها بعصبية ، واخيرا قالت بصوت كله الصدق :

ـ اعتقد أن الموت يهددنا معا .. واذا مت انت ، فان معى خنجرك الذى سأقتل به نفسى .. انى لن اعيش بعدك

فتقدم نحوها خطوة ، وقد توهجت وجنتاه انفعالا . ولكنه توقف فجاة وقال لنفسه انه لاشك احمق اذا كان يظن ان كلماتها تحمل معنى الحب له الى حد التضحية بنفسها من اجله

وعادت هى تقول :

ـ لسوف يغفر الله لى اذا اضطررت الى اتخاذ هذه الخطوة .. اذا اخترت ايسر سبيل للمحافظة على الشرف ، لان الشرف ياسيدى هو اقدس شيء فى هذه الدنيا

فقال بلهجة الانسان النادم :

ـ انا اعرف هذا .. ولشد ما تمنيت لو انى التزمت حدوده

وبعد برهة من الصمت ، قال :

ـ سوف تجدين هنا كل اسباب الراحة الممكنة . واذا احتجت الى شيء ، فصفقى .. وعندئذ يهرع اليك احد اتباعى . ويمكنك أن تتفاهمى معه بالفرنسية ، وقد كنت اتمنى لو وضعت فى خدمتك امراة .. ولكن هذا مستحيل كما ترين

ولما هم بالانصراف قالت :

ـ هل ستتركنى ؟

ـ طبعا .. ولكن تاكدى انى ساكون قريبا منك دائما . وفى الوقت نفسه تاكدى ان الامور فى الوقت الحاضر ليست اسوا مما كانت . انك الآن على كل حال فى وضع اكثر راحة من وضعك داخل السلة . وعلى هذا تفاءلى وتشجعى وكلى واستريحى ، وليحفظك الله . وساعود اليك مع شروق الشمس

وفى الخارج راى صقر البحر اسد الدين وابنه جالسين تحت الظلة الفاخرة . وكان الليل قد ارخى استاره تماما ، وتالقت فى السماء بضعة نجوم ، وركدت الرياح .. وخيم السكون الا من خرير الماء وهو يداعب جوانب السفينة ، وغمغمة بعض البحارة المحاربين أو الجدافين . وكان هنا وهناك على طول السفينة بعض المصابيح التى تلقى اضواءها الخافتة على رقعة صغيرة حولها

واقترب صقر البحر من اسد الدين ، وقال له :

ـ هل تاذن لى بكلمة على انفراد ؟

ـ انى على انفراد الان !

ـ هل افهم من هذا ان مرزاق لا يعتبر شيئا ؟ الواقع انى كنت اظن هذا منذ مدة

وكشر مرزاق عن اسنانه غاضبا ، ولكن اسد الدين قال بسرعة :

ـ ان ابن الرجل هو توأم روحه .. ومن ثم فليس هناك اسرار بينهما .. فتكلم اذن امام مرزاق او انصرف

ـ حسنا .. هل تأذن لى بالجلوس ؟

ثم جلس بسرعة حتى يضع اسد الدين امام الامر الواقع ، ثم قال :

ـ سيدى .. لقد تصدعت العلاقة بيننا ، والواجب ان نعود الى الاتحاد من اجل مجد الاسلام

ـ اننى لست المسئول عما حدث يا صقر البحر .. وعليك انت ان تصلح الأمر

ـ وهذا ما اريده يا سيدى .. ان سبب النزاع بيننا هو هذه الفتاة الافرنجية ، ولهذا اقترح ان نتخلص منها ليعود الصفاء الى قلوبنا

وكان فى قرارة نفسه يعرف عن يقين ان الصفاء لن يعود الى قلب اسد الدين ابدا . وانه لن يستريح حتى يقضى عليه ، لان هذه هى طبيعة الحكام فى كل زمان ومكان . ان الحاكم الذى يشعر بالخوف من احد الرعايا لا يستريح حتى يقضى عليه . وقد شعر اسد الدين بالخوف من صقر البحر ، ومن ثم فلن يهدأ له بال حتى يزيحه من طريقه . ولا شك انه سينتهز الفرصة الملائمة لتحقيق هذا المأرب ، سواء على سطح السفينة او بعد العودة الى الجزائر

ولكن صقر البحر لم يكن يهمه كثيرا هذا المصير ، وانما كان اهتمامه مركزا فى انقاذ روزاموند بأية وسيلة ، ولو ضحى فى هذا السبيل بحياته

والتمعت عينا اسد الدين حين سمع كلمات صقر البحر الاخيرة ، وقال :

ـ كيف تتخلص منها ؟ هل ستكفر عن جريمة زواجك الصورى وتطلقها ، وتتخلى عنها ؟

ـ لا يا مولاى .. ليس هذا ما اعنى .. وانما اعنى ان نبحر غدا صباحا الى اقرب شاطىء أوروبى حيث نتركها فيه ، وندعها تعود

الى بلادها فى سلام ثم ننتهى من الاستيلاء على السفينة الاسبانية ، ونعود فى امان الى الجزائر ونحن متحدين متآزرين فى خدمة الاسلام

واطرق اسد الدين مفكرا ، وقد تنازعته الاهواء والرغبات .. كان يرى أن ما عرض صقر البحر عليه فرصة سانحة للخلاص منه .. مقابل ان تفلت من يديه هذه الجوهرة الافرنجية

وفجأة احس بثيران الحب تندلع فى قلبه وتفقده الاتزان وسلامة التفكير ، فمال نحو صقر البحر بعينين براقتين ، وقال :

ـ مادمت لا تريدها لنفسك يا صقر البحر ، فلماذا تحرمنى منها ؟ عندما ظننت انك تزوجتها حقا ، احترمت هذا الزواج واستسلمت للامر الواقع .. اما وقد ثبت لى الان ان هذا الزواج كان صوريا لخداعى والسخرية منى ، فانى لم أعد اعترف به ، واعتقد انها الآن قد اصبحت مباحة لاى رجل يستطيع الظفر بها !

فوثب صقر البحر واقفا ، وقد نفرت عروق وجهه ، وشرع السيف فى يده :

ـ سيكون هذا السيف بينها وبين اى رجل يجرؤ على لمس شعرة فى رأسها

ووثب اسد الدين بنفس السرعة والغضب ، وقال :

ـ اتهددنى ؟

ـ اننى لا أهدد وانما انبأ بما سيحدث

ثم استدار لا يلوى على شىء

واخذ اسد الدين يشيعه بنظرات قاتلة ، وهو يرتجف من فرط الغضب والحيرة . وانتهز مرزاق هذه الفرصة وقال :

ـ أبى .. ان خير وسيلة هى أن نتخلص من هذه الشيطانة الافرنجية بالطريقة التى يقترحها هذا اللعين ، ثم نستدرجه الى الجزائر حيث نقضى عليه . نعم يا أبى ، ليس امامنا غير هذا السبيل

فقال اسد الدين فى صرامة :

ـ هل انا جبان حتى اخشى صعلوكا كهذا او اوافق على ما يريد ؟

ـ لا يا ابى .. وانما اخشى ان ينتهز الفرصة الليلة ويثير حركة تمرد بين اعوانه ضدنا

ـ اطمئن من هذه الناحية .. لقد ارسلت بسكاين ـ البراق ليعرف حقيقة اتجاهات المحاربين . اما الضباط فانهم جميعا فى صفنا .. ولسوف اعرف بعد قليل حقيقة الموقف عندما يعود بسكاين ـ البراق

فقال مرزاق فى توسل :

ـ ولكن اليس من الاجدى والاسلم ان نتخلص من هذه الافرنجية ، ونقضى على صقر البحر بلا حاجة الى معركة فاصلة ؟

فهز اسد الدين راسه فى اصرار ، وقال :

ـ اتخلص من هذه الجوهرة الافرنجية ؟ لا .. انها البستان الذى يقدم الى عطره .. انها الرحيق الذى سأذوق فيه رحيق الكوثر

ثم ارسل ضحكة مجنونة ، واردف قائلا :

ـ اتريد منى ان اتخلى عن هذه الحسناء الوردية الفاتنة ؟.. لا ياولدى ، انها فى نظرى تساوى امارة كاملة !

وقطب مرزاق جبينه ، وهو يفكر فى امه وفى مكانتها التى ستضيع اذا تحقق لأبيه هذا الامل . وقبل ان يرد عليه بشىء ، اذا بسكاين ـ البراق يقبل ، فينتهز الباشا هذه الفرصة ، ويقول له متلهفا :

ـ ماذا وراءك يا بسكاين ؟

فقال بسكاين باكتئاب :

ـ ان الموقف حرج ، وقد ادركت بالدهاء والحذر ان عددا كبيرا من المحاربين سوف ينضمون لصقر البحر اذا وقعت بينك وبينه الواقعة

وهتف مرزاق عندئذ :

ـ فى هذه الحالة يجب يا ابى ان نقبل ما اقترحه علينا

فرد عليه أبوه بحزم :

ـ مهلا .. ان كل شىء مرهون بوقته وظروفه .. لسوف افكر فى الأمر

وفى الوقت نفسه ، كان صقر البحر يفكر فى الموقف وفى جميع احتمالاته وهو راقد تحت نجوم السماء ، وعلى عتبة مقصورة روزاموند ، جاعلا من جسمه حاجزا بينها وبين اى دخيل تحدثه نفسه باقتحام مخدعها

mersalli

الفصل السادس عشر

الرسالة السرية

وفى الصباح ، حينما دخل صقر البحر على روزاموند ، وجدها اكثر انتعاشا ونضارة ، واقدر على احتمال الموقف ، كما لاحظ انها لم تعد تتحاشاه او تنفر منه كما كانت تفعل فى اليوم السابق

وبعد أن شرح لها الموقف . وما حدث بينه وبين اسد الدين فى الليلة السابقة ، تركها ليعود اليها بعد الظهر . وعندئذ قال لها ان الموقف لا يزال متجمدا ، ولكنه لن يعدم وسيلة يستطيع بها ان ينزلها على الشـــاطىء الاوروبى .. ثم قال ان الرقيب على المرتفعات الصخرية شاهد من بعيد سفينة كبيرة متعددة الأشرعة تتجه نحو الناحية الغربية امام رياح خفيفة جدا ، أما السفينة الاسبانية التى يكمنون لها فلم يظهر لها أثر بعد

ولما رأى القلق يطل من عينيها ، اكد لها انه لن يستريح حتى يخلق الفرصة المناسبة التى يستطيع بها ان ينقذها من هـذا الموقف . ثم اردف قائلا :

ــ نعم .. اذا لم تسنح الفرصة المناسبة ، فسوف اصـنعها بنفسى . لقد اعتدت أن اصنع هذه الفرص طول حياتى ، ولا اظن انى فقدت القدرة على صنع واحدة اخرى من اجلها

ووجدت نفسها رغما عنها ، تسأله حين سمعته يتحدث عن حياته :

ــ وكيف صنعت الفرصة التى جعلتك قائدا بحريا فى امـارة الجزائر ؟

ــ انها قصة طويلة الخشى ان تسامى سماعها

ــ لا .. انى لن أسأم . وربما لا تتاح لى فرصة اخرى لأعرف

كل ما حدث لك

ـ أتريدين أن تعرفي ما حدث لي حتى تحكمي لي أو علي ؟

ـ ربما ..

وراح يذرع المقصورة الصغيرة جيئة وذهابا ، وقد عقد يديه وراءه ، واطرق برأسه ، ومضى يقص عليها تفاصيل ما عاناه من آلام واهوال عقب انتزاعه من ارض الوطن ، ووصف لها في اسهاب حياته كجداف مدة ستة أشهر على سفينة اسبانية ، واختتم حديثه قائلا :

ـ وهكذا قد عرفت اية قوى كنت أقاومها .. ولو تعرض لها انسان آخر اقوى خلقا مني ، لآثر الموت على مواجهتها . ولكنني لم اكن قوى الروح .. ولعلي اردت ان اعيش لأنتقم ، لأصب مرارة حياتي على ليونيل الذي حول حبي له الى كراهية رهيبة

ـ وعلى انا بلا شك !

ـ لا .. لقد كرهتك عندما علمت انك مزقت الرسالة التي أرسلتها اليك مع بيت ، ولكنني ادركت الآن انك كنت على حق في موقفك مني بعد ان ظننت أنني هربت من البلاد بمحض ارادتي . ولهذا اغفر لك كل شيء ، واعترف اني اخطأت حين أطعت ذلك الحافز المفاجيء الذي جعلني اختطفك مع ليونيل في الليلة التي ذهبت فيها مع رجالي الى قصر اردينك

ـ هل تعني انك لم تكن تقصد اختطافي في تلك الليلة ؟

ـ لا .. اقسم لك انني لم اكن اقصد هذا . لقد ذهبت الى قصر اردينك لارغمك فقط على سماع الحقيقة . وكنت أريد فقط ان اختطف ليونيل لاعاتبه ، اما اختطافك فكان مجرد نزوة استبدت بي في تلك اللحظة . واعتقد اني ادفع الآن ثمنها غاليا

فغمغمت بصوت رقيق :

ـ لقد فهمت الآن ..

فقال بلهجة جادة :

ـ ان الفهم هو نصف المغفرة . ولكن قبل ان تغفري لي تماما . يجب ان اكفر أولا عما ارتكبت في حقك ، وذلك باعادتك سالمة الى أرض الوطن

وفى تلك اللحظة سمع الفرنسى لاروك فى خارج المقصورة يصيح بانفعال على اسد الدين كأنما حدث امر خطير ، فاندفع الى الخارج حيث راى لاروك يتسلق جانب السفينة مهرعا الى حيث وقف اسد الدين وابنه مرزاق وبعض ضباطه ومن بينهم بسكابن — البراق . وقال لاروك بانفاس لاهثة :

ـ السفينة ياسيدى التى رايتها فى الفجر

ـ ماذا عنها ؟

ـ انها هنا .. فى الخليج الخارجى .. لقد القت مراسيها على مسافة ميل واحد من عنق الزجاجة المؤدى الى هذا المخبأ

فقال اسد الدين :

ـ لا داعى للخوف .. ما دامت قد القت مراسيها فى ذلك المكان ، فلا شك انها لا تعرف شيئا عنا .. اى نوع من السفن هى ؟

ـ انها سفينة حربية ضخمة ذات عشرين مدفعا تحمل العلم الانجليزى

فقال اسد الدين فى دهشة :

ـ انجليزية ؟ لابد انها سفينة هائلة التسليح اذ تجرؤ على اقتحام المياه الاسبانية !

وتقدم صقر البحر ، وقال للاروك :

ـ الم تر عليها شعارا آخر ؟

ـ اجل .. رايت فى اعلى صاريها الكبير رقعة زرقاء تحمل صورة طائر ابيض .. اظنه اللقلق الابيض

وفكر صقر البحر برهة محاولا ان يتذكر اسرة انجليزية تحمل هذا الشعار . ولكنه فوجىء بشهقة وراءه .. فلما التفت ، راى روزاموند واقفة فى مدخل المقصورة ، مضطربة لاهثة الانفاس ، فاسرع اليها قائلا :

ـ ماذا بك ؟

ـ انه يعتقد ان الطائر الذى راى صورته هو اللقلق الابيض ، ولكننى اعتقد انه مالك الحزين الابيض

ـ وماذا فى هذا ؟

ـ الا ترى ؟ انه شعار السير جون كيليجرو .. انه يسمى سفينته الجديدة « سيلفر هيرون » ـ لقد كانت على وشك الابحار عندما جئت انت الى اردبناك .. ولاشك انه اندفع وراءك محاولا اللحاق بك

فقال ، وهو يزوى مابين حاجبيه مفكرا :

ـ لقد تأخر بضعة ايام .. ولكنه جاء فى وقته اخيرا

فقالت مترددة :

ـ هل تعنى ان فى مقدورك الاتصال به ؟

ـ نعم .. ولكن لابد لى ان اتمس الوسيلة الى هذا . ولاشك ان الامر يحتاج الى تفكير طويل

فقالت فى تعجب :

ـ هل افهم من هذا انك ستغامر وتبذل جهدك لايجاد هذه الوسيلة ؟!

ـ بكل تاكيد ، وان كان هذا سيؤدى الى ضياع بعض الارواح

فهتفت قائلة ، وهى تظنه يعنى نفسه :

ـ لا .. لا .. اننى لا اقبل النجاة بمثل هذا الثمن !

وقبل ان يرد عليها ، اذا غمغمة اصوات تعلو من ناحية البحارة المحاربين ، وكان مرزاق قد اقترح ـ بدافع من الخوف ـ ان تخرج السفينة من هذا المازق الى عرض البحر سرا ، وتهرب من تلك السفينة الضخمة التسليح . والتقط البحارة هذا الاقتراح ، وصاح واحد من بين صفوفهم قائلا :

ـ يجب يا مولاى ان تخرج بسرعة من هذه المصيدة ...

وهتف زملاؤه يؤيدونه ، وعندئذ صاح اسد الدين فى غضب وثورة :

ـ اسكتوا .. ان هذه المسالة تتعلق بى ، وسوف افكر فى الامر .. وعليكم ان تعودوا الى مراكزكم فورا

ولكن البحارة الذين لم يعتادوا ان يتلقوا الاوامر من اسد الدين ، انتهزوا هذه الفرصة وقرروا ان يلتجئوا الى القائد الذى طالما ساقهم الى النصر ، فهتفوا قائلين :

ـ صقر البحر .. صقر البحر . انك ياصقر البحر لن تتركنا

نموت فى هذه المصيدة كالفئران !

وكانت هذه العبارة كالشرارة التى اشعلت الفتيل ، فارتفعت اصوات البحارة هاتفة بحياة صقر البحر ، وامتـــدت ايديهم نحوه .. وتراجع اسد الدين فى فزع ممزوج بالغضب ، ومد يده الى مقبض سيفه ، ولكنه لم يلبث أن صب شعوره بالمرارة على ابنه مرزاق الذى كان السبب فى كل ما حدث

وفى الوقت نفسه كانت روزاموند قد اقتربت من صقر البحر، وهمست قائلة :

ـ هذه نجدة من السماء .. وعليك ان تنتهز الفرصة ، ولاشك ان الرجال سيلبون اية اشارة منك الان

فقال وهو يبتسم فى عينيها :

ـ نعم .. نعم . ولكن .. مهلا

وكان صقر البحر ، فى تلك اللحظة ، قد استقر على خطة معينة راى ان يعمل على تنفيذها .. ومن ثم تقدم نحو البحارة متظاهرا بالغضب الشديد ، وصاح هادرا :

ـ ما معنى هذا ايها الاخوان ؟ هل فقدتم عقولكم حتى ترفعوا اصوات التمرد امام الباشا الذى هو ظل الله فى الارض ؟

وخيم السكون على الجميع ، وكتمت روزاموند انفاسـها من فرط الاستياء ، وقد بدا لها انه يريد أن يخدعها ، ويفلت الفرصة الوحيدة التى سنحت لانقاذها .. وانحنت على السياج الحديدى لتلتقط كل كلمة تصدر عنه . وقد سـمعته يقول للاروك آمرا :

ـ عد الى مركز مراقبتك ، وراقب تحـركات تلك الســفينة الانجليزية واخبرنا بها اولا بأول . اننا لن نتحرك من هذا المكان الا اذا شاء مولانا اسد الدين هذا

وبعد أن اسرع لاروك لتلبية الامر ، راح صقر البحر يخطب فى رجاله مشيرا تخوتهم .. مؤكدا لهم ان السفينة الانجليزية لاتعرف عنهم شيئا ، وحتى اذا عرفت ، فانه من الافضل ان يشتبكوا معها فى معركة على مسافة قصيرة لا تصلح فيها المدافع . اما فى عرض البحر ، فلا شك ان العشرين مدفعا ســوف تغرق سفينتهم قبل ان يتمكنوا من الاقتراب من اعدائهم

وعاد المحاربون الى اماكنهم فى سكون .. ووقف اسد الدين مدهوشا ، وهو يرى صقر البحر ينجح فيما فشل فيه هو . وفجاة تحولت دهشته ، وكلمات المديح التى كاد ان يكيلها له ، الى حسد وحقد وكراهية . لقد ادرك فجاة ان الموقف لم يعد يحتمله ويحتمل صقر البحر فى وقت واحد ، وانه لابد لاحدهما ان ينتصر على الاخر نهائيا

وادرك صقر البحر ، من نظرات الباشا ، مايصطرع فى اعماق نفسه . ومع ذلك فقد تقدم نحوه بجراة ، وامر المحيطين حوله إن يبتعدوا جميعا . ولم يجرؤ واحد منهم ، حتى مرزاق ، ان يعصى هذا الامر . ولما اصبح الاثنان ، صقر البحر واسد الدين ، على انفراد ، قال الاول للثانى :

ـ لقد عرضت عليك يا مولاى ليلة امس اقتراحا يؤدى الى اقرار السلام بيننا .. ولكنك رفضت . ولو كنت انا الخائن الغادر كما وصفتنى ، لانتهزت هذه الفرصة وتمردت عليك . وفى هذه الحالة ما كنت لاحتاج الى ان اقترح او ارجو وانما كنت افرض رايى . ولكننى رايت ان اثبت لك بالدليل مبلغ ولائى لك حتى استرد مكانتى عندك ، وحتى تقبل اخيرا اقتراحى بشان هذه الفتاة الافرنجية

وربما شاء سوء الحظ ان تقف روزاموند فى تلك اللحظة امام مدخل مقصورتها عارية الوجه ، يضيء جمالها كالبدر فى نظر اسد الدين الذى راح يتاملها وهو يلعق شفتيه ثم يقول :

ـ ليس انت يا صقر البحر الذى تقدم الى مثل هذا الاقتراح . فلو كنت مخلصا لى حقا ، لما سعيت الى حرمانى من هذه الجوهرة الافرنجية . وطالما انت واقف بينى وبينها ، فلن يكون بيننا سلام قط !

فقال صقر البحر ، وقد تطاير شرر الغضب من عينيه :

ـ لا ترفع صوتك هكذا يا سيدى .. والا فلن اكون مسئولا عما يفعله رجالى اذا علموا انك تهدد قائدهم . واذا كان هذا هو قرارك الاخير ، فليكن لك ما تريد ، ولا تلومن الا نفسك .. انها اذن الحرب بينى وبينك . ولكن تذكر انك اخترت هذا السبيل ، عندما ترى

النتيجة بعينيك

ـ اتهددنى ايها الكلب المتمرد ؟!

فقال صقر البحر وهو ينصرف :

ـ لسوف ترى نتيجة تصرفاتك الحمقاء التى تمليها عليك نزواتك البهيمية

ومضى مسرعا الى روزاموند ، وقال لها بصرامة :

ـ آنستى .. ليس من الحكمة فى شىء أن تكشفى عن وجهك هكذا امام الجميع

فنظرت اليه فى تحد ، وقالت :

ـ أتتحدث عن الحكمة وانا اسمع منك اقوالا ، ثم ارى تصرفات تناقضها !

ما هذا الدور الذى تقوم به يا سيدى ..؟ افصح

فادرك انها اخطأت فهم الدور الذى يقوم به ، ومن ثم قال لها :

ـ ارجو الا تسيئى بى الظن مرة اخرى .. ويكفى ان تعلمى اننى سوف انقذك من هذا الموقف ولو ضحيت بحياتى فى هذا الشأن. والآن ارجوك ان تدخلى مقصورتك ، ولا تخرجى منها الا باذنى

وارتجفت على شفتيها بعض الاسئلة ، ولكنها لم تستطع الا ان تخضع للهجته الآمرة ، وتدخل المقصورة فى هدوء

▱

ظلت روزاموند فى مقصورتها بقية اليوم حائرة لا تدرى ، على وجه التحديد ، ما ذا ينوى صقر البحر ان يفعل . ولما غربت الشمس ، استبد الفضول بها . فاطلت برأسها من باب المقصورة حيث رات اسد الدين وابنه مرزاق وبعض ضباطه جالسين يتبادلون الحديث فى همس ، بعد ان فرغوا من صلاة المغرب . ثم لم تلبث أن رات صقر البحر مقبلا ببطء فى وسط السفينة . وفجأة رأته يقف بجوار ليونيل المقيد الى مقعد التجديف ، ويصيح به فى عنف وبلغة الفرانكو ـ آراب :

ـ ما ايها الكلب الاجنبى .. كيف حالك الآن ؟

ورفع ليونيل وجهه اليه فى دهشة ، وقال باللغة الانجليزية :

ـ ماذا تقول ؟

وانحنى صقر البحر عليه ، وقد رسم على وجهه أمارات التهكم والقسوة ليراها الجميع ، ثم تحدث الى ليونيل بلغة انجليزية خافتة :

ـ لا تبالى بما يبدو على وجهى .. اننى أريد أن يظن الجالسون هناك اننى أشتمك ، وعليك أن تبدو فى هيئة الرجل الذى يهان بقسوة . كشر عن انيابك وهدد بقبضة يدك .. اسمع .. هل تذكر كيف كنا ونحن غلامان نسبح من شاطىء بينارد الى رأس تريفوس ؟

فقال ليونيل فى تجهم طبيعى :

ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟

ـ اننى أريدك ان تسبح الليلة من أجل حريتك وحرية روزاموند .. ان سفينة السير كيليجرو راسية خارج هذا الخليج الصغير . فاذا أتحت لك الفرصة ، فهل تستطيع أن تسبح اليها ؟

ـ أتهزأ بى ؟!..

ـ اسمع .. لا مجال للجدال . هل تستطيع أن تقطع المسافة سباحة أو لا ؟ ! .. تكلم ..

ـ ولكن كيف ؟

ـ سأتظاهر بأنى أقسو عليك فى السباب ، وعليك أن تثور وتوجه الى وجهى ضربة قاسية ، وعندئذ سأرد عليك بمثلها .. وهنا تتظاهر بأنك فقدت الوعى ، واترك الباقى لتدبيرى

وتمت العملية التمثيلية كما أراد صقر البحر ، وتظاهر ليونيل بالاغماء على مقبض المجداف ، بينما هرع عدد من المحاربين الثائرين لينتقموا منه ، عندما رأوه وهو يضرب قائدهم بقبضة يده فى وجهه .. ولكن صقر البحر قال لهم :

ـ فكوا القيد عن هذا الغراب والقوا به فى اليم ليكون عبرة لغيره . وسرعان ماتحطم القيد الحديدى عن قدمى ليونيل .. وما هى غير لحظات حتى ألقى البحارة بجثته ـ أو هكذا ظنوا أنها جثته ـ الى البحر

وضحك بسكاين ـ البراق ، ونظر اسد الدين الى ما يجرى بوجه ينم عن الرضا .. ولكن روزاموند تراجعت الى المقصورة وهى ترتعد من الغضب واليأس ، وقد ظنت أن صقر البحر فقد عقله تماما من

فرط كراهيته لاخيه هذا غير الشقيق

ولا عجب أن ثارت في وجهه بعنف حين أقبل عليها داخل المقصورة، وهتفت قائلة وهي ترتعد بالسخط والغضب :

ـ ايها الوحش .. ايها الشيطان ! لسوف ادعو الله بآخر انفاسي أن يعاقبك وأن يلعنك وأن يصب عليك غضب الارض والسماء .. ايها الكلب الحقير ! لقد تكشفت لي حقيقتك بعد أن كدت أنخدع فيك، وبعد أن ظننت أنك ندمت حقا على ماجنت يداك

فقال لها في دهشة :

ـ مامعنى هذه الثورة ؟ .. اية اساءة وجهتها اليك فيما فعلت مع ليونيل ؟!

ـ انك لا تستطيع أن تسيء الى ، لانى لن أتيح لك هذه الفرصة ابدا . بل لن أجعلك تلمس أى مكان من جسدى بعد اليوم . لقد تكشفت لي حقيقتك ، فاذا أنت قاتل رهيب لا تعرف الشفقة ولا الرحمة

وقاطعها وهو لايزال في دهشة بالغة :

ـ لقد جئت لابشرك أننى اختلست النظر الى ليونيل بعد أن القوا به الى البحر ، رايت رأسه يطفو على سطح الماء بعيدا ، في غسق الغروب .. انه الآن في الطريق سالما الى سفينة السير كيليجرو

فلما نظرت اليه في دهشة وعجب ، قال :

ـ ان المنظر الذى رأيته الآن كان دورا تمثيليا خدعنا به أسد الدين ورجاله ، لكي يستطيع أن يذهب ليونيل الى السير كيليجرو حاملا رسالتى السرية الشفوية بانك على ظهر هذه السفينة ، ومن ثم يسرع لانقاذك

وظلت تحملق في وجهه وكأنما لا تصدق اذنيها ، ثم تمتمت قائلة:

ـ اصدقا مانقول ؟

فهز كتفيه ، وقال :

ـ وما فائدتى من الكذب ؟.. لسوف ترين بنفسك بعد قليل

وتهالكت على المتكأ في ندم وألم .. وانفجرت باكية ، وهي تقول :

ـ ومع ذلك ظننت أنك .. أنك

فقاطعها فى اكتئاب قائلا :

ـ هكذا أنت دائما .. دائما تظنين بى أسوأ الظنون !

ثم استدار وانصرف بسرعة

mersalli

الفصل السابع عشر

بين الموت والحياة

انصرف صقر البحر عن روزاموند والمرارة تملأ قلبه .. بينما كان الندم يملأ قلبها هي .. ذلك أن شعورها بموقفها هذا الظالم، الأخير ، منه .. غمرها بذلك الاحساس المؤلم ، بأنها هكذا كانت معه دائما ، متهورة ، لا تحاول أن تتريث في أحكامها عليه . ولاشك أن هذا كله قد دفع به الى هذه الحياة القاسية التي عاناها من قبل، ولا يزال يعانيها الآن

ولما كان الشعور العميق بالندم يستلزم دائما الرغبة العميقة في التكفير ، فكذلك كان الامر معها .. فلو انه لم ينصرف هكذا بسرعة، لركعت عند قدميه ، وطلبت منه الصفح والغفران عما ارتكبت في حقه ، معلنة في الوقت نفسه أنها تافهة ، وحقيرة ، وغير جديرة بحبه واخلاصه وتفانيه في سبيل انقاذها !

ولكن انصرافه هذا السريع ، جعلها تبقى في مقصورتها فريسة للندم والالم والاكتئاب ، مفكرة في العبارات التي يجب أن تقولها له عندما يعود اليها

ولكن الساعات مضت دون أن يحضر .. وخطر لها فجأة — وهي اشد ما تكون انزعاجا — ان السير كيليجرو قد ينقض عليهم بسفينته في أية لحظة وينتزعها من الاسر ، فلا تتاح لها الفرصة لان تعرب عن حقيقة مشاعرها لصقر البحر .. بل ربما تضيع هذه الفرصة الى الابد ، اذا احتدمت المعركة وسقط صقر البحر قتيلا فيها

وعند منتصف الليل تقريبا ، لم تستطع أن تحتمل أكثر مما احتملت .. فنهضت وتقدمت برفق نحو باب المقصورة حيث رفعت

المستائر بحذر شديد . وفيما هي تهم بالخروج ، تعثرت قدماها في شخص كان ينام أمام المدخل .. فتراجعت في خوف وهي تكتم صيحة فزع ، ولكنها انحنت بسرعة فرات في ضوء المصابيح الخافتة أن الراقد لم يكن أحدا غير السير أوليفر . ولم يحدث قط أن اعتمت يوما بأمر العملاقين الحارسين اللذين كانا يقفان ببابها ، ولكنها الآن ظلت منحنية عليه ، ثم اذا هي تركع في رفق بجانبه والدموع تملأ عينيها .. دموع العطف والاشفاق وعرفان الجميل ، والندم ، والحب الذي بعث أقوى ما يكون . لقد ادركت بالدليل القاطع أن هذا الرجل الذي طالما شكت في امره ، وطالما حرمته من الثقة ، يجعل من جسده حاجزا يمنع عنها كل سوء

وندت عنها شهقة بكاء ، جعلت صقر البحر ينتبه فجأة وينتصب جالسا .. وهو يضع يده على مقبض سيفه . ولما التقت نظراتهما ، قال هامسا :

ـ ما هذا ؟!

وتراجعت قليلا في خوف ، وقد نسيت ماكانت تريد أن تقول أو تفعل ، ثم تمتمت قائلة :

ـ هل تظن أن ليونيل قد وصل الى سفينة السير كيلبجرو ؟

فنهض وأمسك بيدها ، ودخل معها الى المقصورة .. وقال وهو يتلفت في جوانبها وقد أدرك أنها لم تنم :

ـ هل جعلك القلق تظلين ساهرة حتى الآن ؟

ـ أجل ..

ـ اطمئني ان السير جون لن يتحرك قبل منتصف الليل حتى يتأكد من مفاجأته لنا .. ولست أشك في أن ليونيل سيصل اليه سالما ، لان المسافة ليست بعيدة جدا . ولا ريب أنه حين يخرج من هذا الخليج الصغير ، سيسير على الشاطىء حتى يصل الى سفينة السير جون

وجلست وهي تتحاشى النظر اليه .. ولكنه رأى ، رغم الضوء الخافت ، آثار الدموع على وجهها . وقبل أن يقول شيئا ، قالت هي:

ـ هل ستدور رحى معركة عندما يأتي السير جون ؟

ـ أظن هذا .. ولكنني وضعت خطة أرجو بها أن أمنع اراقة الدماء

بقدر الامكان . اطمئنى وتذرعى بالشجاعة ، وثقى اننى ادعو لك ليلا ونهارا أن تصلى الى بلادك سالمة ، وأن يكون كل ما رأيته فى هذه الفترة الوجيزة مجرد حلم ثقيل

ـ ان كل ما ارجوه الا تقع معركة بسببى هنا

ـ اطمئنى من هذه الناحية ، وتأكدى أنك ستخرجين من هذه المحنة بسلام

فقالت وهى تنظر اليه فجأة :

ـ انك تسىء فهمى ! انظن اننى خائفة على نفسى ؟

وتوقفت عن الحديث برهة قبل ان تسأله فجأة :

ـ ماذا سيحدث لك ؟

ـ أشكرك على اهتمامك بأمرى .. ولكن ماسيحدث لى سيكون جزاء وفاقا لما جنت يداى .. وكل ما أرجو أن يتم هذا بسرعة

فهتفت قائلة ، وهى تنهض بفزع :

ـ لا ، لا .. لن يكون هذا !

ـ اذن أى مصير آخر ينتظرنى أفضل من هذا ؟

ففاجأته قائلة :

ـ بل يجب أن تعود الى انجلترا ، وأن تعلن براءتك للجميع ، وأن يعرف كل انسان هناك الحقيقة كاملة ، وأن تأخذ العدالة مجراها معك

ـ هناك لون واحد من العدالة ينتظرنى فى انجلترا .. انها عدالة حبل المشنقة .. اجل ، لقد اصبح القوم هناك يتلهفون على رؤيتى معلقا فى الهواء . وهل هذا خير ما ينبغى بالنسبة لى .. انظرى فقط الى آخر تصرفاتى . هانذا أغدر بالابطال الذين التفوا حولى فى معارك هائلة خرجنا منها منتصرين .. هانذا لا أقيم وزنا لحقوق الزمالة ، وارسل خفية الى عدوهم لكى ينقض عليهم تحقيقا لهدف خاص ، فهل يليق بمن كان مثلى ان يعيش لحظة بعد ذلك ؟ أن الموت هو أهون عقاب ، وأفضل مصير

فقالت فى شىء من الضيق والالم :

ـ هل خيانتك لزملائك هى ثمن انقاذى ؟

ـ اننى أرجو أن تنجح خطتى فلا تكون الخيانة هى الثمن

ـ وهل تشمل هذه الخطة انقاذ حياتك أيضا ؟

ـ لماذا تهتمين بأمر تافه مثل حياتي ٠٠ ان حياتي قد انتهت وتقرر مصيري فعلا ٠٠ حبل المشنقة في انتظاري بانجلترا ، والموت أو ما هو شر من الموت في انتظاري بالجزائر على يدي اسد الدين !

فتهالكت جالسة على المتكأ ، وراحت تهتز من فرط اليأس ، وهي تقول :

ـ لقد فهمت ٠٠ فهمت ٠٠ انك حين أرسلت ليونيل في تلك المهمة ، كنت تعلم أنك تحاول انقاذي على حساب حياتك ٠ ولكن ، لم يكن لك أي حق في أن تفعل هذا دون استشارتي ٠ لم يكن لك أي حق في أن تفترض أني أقبل مثل هذه التضحية ٠ انني لن أقبلها ٠٠ لن أقبلها ياسير أوليفر !

فرد عليها قائلا :

ـ لم يعد لك ، والحمد لله ، حق الاختيار ، الا أنك أخطأت في استنتاجاتك ٠٠ فأنا فقط الذي جلبت على نفسي هذا المصير ٠ ان أعمالي الآن تلتف حول عنقي ، مثل كل أعمال شريرة ، لتقضي علي

ثم أردف قائلا في صوت خافت متردد :

ـ هل ٠٠ هل أغالي في طلبي اذا رجوت منك أن تغفري لي ؟

ـ أعتقد أن واجبي أن أطلب منك أنت الصفح والغفران

ـ مني أنا ؟٠٠

ـ نعم ٠٠ بسبب عدم ثقتي فيك التي أدت الى هذا كله ٠٠ بسبب استعدادي لان اسمع عنك كل سوء وأومن به طيلة هذه السنوات الخمس ، بسبب القائي برسالتك في النار قبل أن أقرأها

فابتسم في عطف شديد ، وقال :

ـ لا ياروزاموند ٠٠ انك مخطئة في كل هذا ٠٠ انما الحقيقة هي أني شرير بطبيعتي كما قلت أمس ٠٠ والموت لمن كان مثلي هو الجزاء الوحيد

فقالت ضارعة :

ـ انني لا أدري لماذا تتشبث بالموت الى هذا الحد

ـ انني لا أتشبث بالموت ، ولكن الموت هو الذي يتشبث بي ٠٠ وأنا الآن بحكم اشرافي على الموت أرى ما لا يراه غيري من الاحياء ٠٠

بل سعيد ايضا بغفرانك لى !

فنهضت اليه ، وأمسكت بيـــده ، وتطلعت الى وجهه وقالت بضراعة :

ـ اننا فى حاجة لأن يغفر كل منا لصاحبه ، أنت وأنا ياسـير أوليفر ، ومادام الصفح يمحو كل شىء ، فدعنا ننسى كل ماحدث بيننا فى هذه السنوات الخمس الاخيرة

فحبس انفاسه ، ونظر الى وجهها الشاحب ، ثم هتف بوجه سطع فجاة بالامل :

ـ أيمكن هذا ؟ أيمكن أن نعود الى ماقبل خمس سنوات ؟ أيمكن أن نعود الى اليوم الذى جلسنا فيه متعانقين على جدول وراء سور قصر جودلفين ؟

ولكن وجهه لم يلبث أن اكتاب مرة اخرى .. واذا الألم يظلل عينيه وهو يقول بصوت متخاذل :

ـ ولكن لا .. ان الذى اخطأ لابد له أن يكفر عن خطئه . وهكذا ارى أبواب الماضى كله ، بخيره وشره مغلقة تماما فى وجهى

ـ اذن دعنا من الماضى بكل مافيه من خير وشر .. وهلم نبدأ حياتنا من جديد لنعوض ما ضيعناه من اعمارنا بالحماقة والطيش !

فأمسك بكتفيها على مسافة ذراع منه ، ونظر اليها بعطف شديد وراح يقول :

ـ يا آنستى الجميلة .. كان يجب أن نظل بين السعداء لو لم يحدث ماحدث . ولكن هكذا شاءت الاقدار .. ان الحب

وفجاة تراخت ذراعاه وأردف قائلا :

ـ ولكن لا .. ليس لمثلى أن يتحدث عن الحب . ان الحب حديث الحياة ، اما انا فقد نذرت نفسى للموت .. وداعا

فتعلقت به فى فزع ، وهتفت قائلة :

ـ أوه .. لا .. لا .. لاتقل هذا

ـ لقد فات الاوان .. ولم يعد أمامى غير الجسر الذى يجب أن أعبره الى نهاية المطاف

فصاحت قائلة فى نشوة :

اذن ساعبره معك .. وبذلك أبقى بجانبك الى النهاية

فقال وهو يتحسس بيده فى رفق خصلات شـــعرها الذهبى المنسدل من رأسها المستريح على صدره :

ـ ما هذا الوهم ياعزيزتى ؟.. ما هذا الاسراف فى الخيال ؟ أتعتقدين أن هذا يرضينى ؟ أتريدين أن تحرمينى من لـــذة التضحية بمـــــوتى من أجلك .. لا يا روزاموند ، اذا أردت أن تسعدينى فى لحظاتى الاخيرة ، فعيشى .. عيشى وانعمى بالحياة ، عيشى وعودى الى انجلترا أو انشرى الحقيقة عنى ، واجعلى من بـين أهدافك فى الحياة تطهير اسمى وشرفى مما علق بهما ..

وفجأة توقف وأرهف السمع قائلا :

ـ ماهذا ؟!

وكان قد سمع من خارج المقصورة صيحة الحرب :

ـ الى السلاح يا رجال .. الى السلاح

وهتف هو وقد وثب الى خارج المقصورة :

ـ لقد حان وقت القتال

الفصل الثامن عشر

الاستسلام

كان على ، الذى تولى المراقبة فوق المرتفعات الصخرية ، يندفع نحو صقر البحر وهو يصيح منذرا :

ـ سيدى .. سيدى لقد شاهدت السفينة الانجليزية ترفع مراسيها وتتحول نحو فتحة الخليج

وسرعان ما كان المحاربون قد تأهبوا بالسلاح للمعركة الفاصلة، بينما قال اسد الدين لصقر البحر بصوت الذى يلتمس المعونة :

ـ ماذا يجب أن نفعل يا صقر البحر ؟

ـ ارى أن نبقى هنا ونستسلم للمصير ..

ـ اهذا راى المحارب الذى اشعل البحار نارا ؟

ـ بل هذا راى القدر .. لاننا لو خرجنـــا الى عرض البحر ، فسوف نتعرض لمدافع السفينة الكثيرة ، ولن يكون لنا أى أمـل فى النجاة

ـ وهل ثمة امل لنا هنا لو بقينا فى هذه المصيدة ؟!

ـ اننا قد نستطيع أن نسلم بشروط طيبة ودون اراقة دماء

وكان صقر البحر وهو يتحدث يمسك بيد روزاموند ويقترب معها نحو الطرف الاقصى من مؤخرة السفينة ، وكان فى قرارةنفسه يبتهل لكى تنجح الخطة التى وضعها للخروج من هذا المازق بسلام

وصاح اسد الدين فى غضب :

ـ بل الى عرض البحر يا رجال .. هيا اسرعوا . اما أن ننتصر او نموت ابطالا .. اطفئوا الانوار . واستنفدوا كل قطرة من قوى الجدافين للهرب بالسفينة ، فان الرياح راكدة ، ومن المحتمل الا

تلحق بنا السفينة الانجليزية اذا خرجنا الى عرض البحر

وما هى غير لحظات حتى كانت السفينة العربية قد اقلعت من مرساتها ، واندفعت نحو عنق الزجاجة المؤدى الى عرض البحر . وظل صقر البحر واقفا فى الطرف الاقصى من المؤخرة يهز كتفيه ، ويعض على شفتيه ، ويخشى أن تنجح خطة اسد الدين فى الهرب ، فتفشل خطته

ومرقت السفينة العربية من عنق الزجاجة على بعد نصف ميل من السفينة الانجليزية التى كانت تطفو ببطء شديد بسبب ركود الرياح . ولكن ماهى غير دقائق معدودة حتى سمع اسد الدين دوى قنبلة مدفع تسقط على مسافة يسيرة من السفينة العربية ، وضحك الباشا ساخرا وقال :

ـ ان الانجليز فى حاجة لان يتعلموا اصابة الهدف

ولكن صقر البحر كان يعلم ان السير جون كيليجرو اراد بهذه القنبلة أن ينذر السفينة العربية فقط ، لانه لم يكن ليجرؤ على اغراقها وهو يعلم أن روزاموند على سطحها

وفيما كانت المسافة تتسع بين السفينتين ، هتف بحارة السفينة العربية ، وقد ايقنوا من النجاة .. ولكن ما كادت اصواتهم تخفت حتى فوجئوا بصقر البحر واقفا بجانب برميل البارود وقد امسك فوقه بمصباح مشتعل ورفع صوته آمرا :

ـ أوقفوا السفينة .. كفوا عن التجديف والا القيت بالمصباح فى برميل البارود ونسفتكم جميعا فى الهواء

وبحركة آلية جمدت ايدى الجدافين على المجاديف ، وخيم الصمت الرهيب على الجميع .. وراحوا يحملقون فى دهشة الى صقر البحر وكأنهم لا يصدقون آذانهم او اعينهم

ولما رفع مرزاق قوسه ليصوب سهما الى قلب صقر البحر ، صاح هذا به ساخرا :

ـ كن على حذر يا خدين النساء وربيب الحريم . لو اصابنى سهمك ، فسوف يسقط المصباح من يدى فى برميل البارود تلقائيا ..

وهتف أسد الدين قائلا فى دهشة وغضب :

ـ قاتلك الله ايها الشيطان المريد ، هل اصابك مس من الجنون؟

ـ بل على العكس يا اسد الدين .. اننى فى كامل قواى العقلية. ولهذا فانى لا اريد أن اعود الى الجزائر لأعلق فى حبل المشنقة او اقيد الى مقعد التجديف مدى الحياة

ـ واذا اقسمت لك ان هذا لن يكون ؟

ـ لم اعد استطيع ان اثق بقسمك .لانك اثبت بقرامك المافون هذا انك شيخ احمق . والشيخ الاحمق اشد خطرا من المجنون . لقد اتحت لك امس كل الفرص الممكنة ، وتوسلت اليك ان تنزل هذه الفتاة فى اى مكان على الشاطىء الاوربى ، مضحيا فى ذلك بنفسى.. ولكنك ابيت الا ان تعلنها حربا بينى وبينك ، وهاهى ذى نتيجة هذه الحرب .. انظر الى السفينة الانجليزية وهى تقترب .. اتسمع هتاف المحاربين على سطحها ؟

فضرب الباشا كفا بكف وصاح قائلا :

ـ اطلب ما تريد منا .. افرض شروطك علينا ، واقسم لك اننى لن اتردد فى تحقيق كل ما تريد

ـ لقد فعلت هذا امس ووضعت حياتى وحريتى بين يديك مقابل ان تمنح الحرية لهذه الفتاة

ولاحظ بطرف عينه يد روزاموند وهى تمسك بصدرها الخافق المضطرب عند سماعها هذه الكلمات ، فأدرك انها فهمتها

وقال اسد الدين :

ـ سوف اغدق عليك المال يا صقر البحر .. سوف ارفع مكانتك فى الجزائر بحيث تغدو اميرها من بعدى ..

ـ لن تستطيع ان تشترينى بكنوز الدنيا كلها يا اسد الدين . لقد حان الوقت لان نفترق او ان نموت معا اذا شئت

فصاح اسد الدين قائلا :

ـ اسأل الله ان يجعل النار مثواك الى الابد ياذا القلب الاسود

ولما ادرك المحاربون ان اسد الدين قد فشل ، صاحوا يلتمسون من صقر البحر ان ينقذهم من ذل الاسر والاستعباد ، فقال لهم :

ـ اطمئنوا جميعا وثقوا بى .. ان الذى قادكم الى النصر دائما لا يرضى لكم الذل والاستعباد . وانما هى خطة انفذها باحكام بحكم

الضرورة ، وبعد ان يئست من الاتفاق الودى مع الباشا .. تأكدوا انكم لن تهزموا فى هذه المعركة

فهتف فيجيتللو قائلا :

ـ ولكن السفينة الانجليزية قد اطبقت علينا ، فأى أمل لنا فى النجاة الان ؟

وكانت السفينة الانجليزية قد اطبقت فعلا على السفينة العربية، واذا عدد من محاربيها الانجليز يقفزون الى سفينة اسعد الدين للاستيلاء عليها ، ولكن رجال صقر البحر اندفعوا لمقاومتهم مستبسلين ، ودارت معركة صغيرة سقط فيها بعض الجرحى قبل ان يرتفع صوت صقر البحر عاليا آمرا :

ـ القوا بالسلاح .. كفى قتالا

ثم قال باللغة الانجليزية وبصوت مرتفع :

ـ سير جون كيليجرو .. مر رجالك بالكف عن القتال واسمعنى، ثم افعل بعد ذلك ما تشاء

ورأى السير جون روزاموند واقفة بجانب المتحدث اليه ، فخطر له ان حياتها ستهدد بالخطر اذا لم يطع هذه الرغبة ، فأصدر أمره الى رجاله بالكف عن القتال ، ثم قال :

ـ ماذا تريد ان تقول ايها القرصان اللعين ؟

ـ ان خطاطيف سفينتك مشدودة الآن الى سفينتنا هذه . اى اننى لو أغرقت هذه السفينة ، فسوف اجركم جميعا معى الى القاع . وانى استطيع ان اغرقها فى لحظة اذا القيت بالمصباح فى برميل البارود هذا . ومن ثم اريدك اولا ان تسحب جميع رجالك الذين وثبوا الى هذه السفينة . وثانيا اريد منك ان تقسم بشرفك وشرف بلادك ان تمتنع تماما عن قتال هذه السفينة العربية ، والا تمد يد الاذى الى أى رجل فيها .. اذا انا سلمت اليك الآنسة روزاموند سالمة

فقال السير جون كيليجرو مزمجرا :

ـ رغم اننى لم اكن مستعدا للمفاوضة او لقبول أى شرط ، الا اننى لا اعترض على تحقيق هذه الرغبات ، بشرط واحد .. وهو ان تسلم ايضا مع الآنسة روزاموند مجرما انجليزيا هاربا انضم

اليكم .. واسمه اوليفر تريسيليان ، فانا لن استريح حتى اراه معلقا فى حبل المشنقة

وفى الحال ، وبدون اى تردد ، جاءه الرد من صقر البحر :

ـ سيكون لك هذا .. وعليك الان ان تقسم بشرفك وبشرف بلادك ان تنسحب بهدوء ودون ان تؤذى اى رجل فى هذه السفينة

وفى تلك اللحظة شهقت روزاموند وامسكت بذراع صقر البحر قائلة :

ـ لا .. لا .. لن ادعك تضحى بحياتك من اجلى

فقال لها محذرا :

ـ حذار يا آنستى ، والا سقط المصباح على البارود

ـ ليكن هذا .. فخير لى ان اموت معك على ان اعيش بعدك

فابتسم لها فى اشفاق ، ثم ابعدها قليلا عنه بيده الاخرى ، ووجه الحديث الى رجاله قائلا :

ـ لقد حرمتكم من النصر ايها الابطال ، ولكننى فى الوقت نفسه منعت عنكم ذل الهزيمة ، فاذكرونى بالخير

ثم قال لاسد الدين :

ـ ارجو ان تحترم هذه الشروط ، وان تعود الى بلادك فى سلام

وقال اسد الدين :

ـ ولماذا لا احترمها ما دام هذا القائد البحرى ينوى ان يشنقك ؟

ـ حسنا .. اتفقنا يا سير جون

وتقدم صقر البحر ، او السير اوليفر ، وهو يكاد يحمل روزاموند حملا ، وسار بخطوات ثابتة بين رجاله المحاربين الذين طفرت الدموع من اعينهم ، وهم يروته يمضى الى حتفه بنفسه حتى يفتديهم . وما كادوا يرون القيود الحديدية توضع فى يديه على السفينة الانجليزية ، حتى صاحوا فى صوت واحد ، وشرعوا الاسلحة ، وهموا بالانقضاض على السفينة الانجليزية وقد عجزوا عن احتمال منظر قائدهم المظفر وهو مقيد بالحديد . ولكن اسد الدين اهاب بهم ان يحترموا الشروط .. ولما لم يكن صوت اسد الدين كافيا لتهدئتهم ، صاح صقر البحر من مكانه على السفينة الانجليزية :

ـ لا ايها الابطال .. يجب ان تحترموا العهد . وما قدر يكون ، فليبارك الله فيكم ، وليجعل النصر دائما فى ركابكم

وارتفع الهتاف مدويا بحياته ، وتعالت صيحات الوداع له،بينما قطعت الحبال التى تشد السفينتين بعضهما الى بعض ، وبدات السفينة الانجليزية فى الابتعاد تدريجيا ، وهتافات رجال صقر البحر تلاحقها

اما على سطح السفينة العربية ، فقد جلس اسد الدين تحت الظلة ، وبدا عليه كانه انسان افاق من حلم رهيب ، فاذا هو يخفى وجهه بين يديه ، ويبكى بكاء الاب على وحيده الذى ضيعه بحماقته وسوء تصرفاته

وراح يلعن النساء جميعا ، ويلعن الظروف التى ادت الى حضور تلك الجوهرة الافرنجية الى الجزائر ، ثم يلعن نفسه بعد ذلك

وفى الصباح تبين لاسد الدين أن رجلا من رجال صقر البحر سقط اسيرا بين يدى السير جون كيليجرو ، لانهم لم يجدوا له اثرا بين الجرحى ، ومن ثم علم ان السير جون لم يحفظ وعده كما ينبغى

وقرر الباشا أن يعود من فوره الى الجزائر ، فلما وصلها بلغهم صقر البحر ، انتشرت فى طول البلاد وعرضها موجة من الحزن استمرت أسابيع وشهورا ..

mersalli

الفصل التاسع عشر

المحاكمة ..

امضى السير اوليفر ليلته مقيد اليدين فى مخزن صغير رطب مظلم بمقدمة السفينة . وكان قد اودع فيه بعد ان اتم القاء القبض عليه دون ان يتبادل كلمة واحدة مع السير جون كيليجرو او اللورد هنرى بجود ـ مؤرخ سيرته ـ الذى كان مرافقا للسير جون فى هذه الرحلة

لم يغمض له جفن طيلة الليل ، وانما استغرق فى افكاره وفى ذكرياته التى اخذت تمر امامه كصور متتالية ، ليس فيها من اضواء البهجة والامل الا القليل

وفيما هو على هذا النحو ، سمع حركة خفيفة بالقرب منه .. فظنها صادرة عن فار ، ولم يبال بها . ولكنه لم يلبث ان فوجىء بصوت يقول له :

ـ من هناك ! ابن انا ؟ ماهذا الحجر اللعين الاسود الذى وضعت فيه ؟!

ودهش السير اوليفر حين عرف ان الصوت لصاحبه الكابتن لاى ، فقال له متعجبا :

ـ انك على سطح سفينة السير جون يا كابتن لاى .. ماالذى اتى بك اليها ؟

ـ ومن انت ؟

ـ انا الذى كانوا يسمونه فى بلاد المغرب صقر البحر

ـ آه . السير اوليفر تريسيليان ؟

ـ اظن ان هذا هو اسمى منذ الآن .. ولكن كيف جئت ؟ ..

لقد تعهد السير جون الا يأسر أحدا من السفينة العربية غيرى

ـ انني لا اعرف ماذا حدث بعد أن ضربني أحدهم على رأسي ضربة افقدتني الصواب .. وكنت قد أغمدت سيفي في صدر أخيك اللعين ليونيل

فكتم السير اوليفر انفاسه ، وقال :

ـ ماذا تقول ؟ هل قتلت ليونيل ؟

ـ اعتقد هذا .. لقد أغمدت سيفي في صدره في الدقائق الاولى من القتال . واعترف انى دهشت حين رأيته بين المحاربين الانجليز، وقد كنت أحسبه في قاع البحر

ـ لقد نال جزاءه العادل .. فليرحمه الله

وبعد برهة صمت ، قال الكابتن لاى :

ـ هل تؤمن بالله ياسير اوليفر ؟

ـ لا اله الا الله ، محمد رسول الله

فصاح الكابتن لاى قائلا :

ـ ولكن هذه عقيدة المسلمين !

ـ انها العقيدة التي أومن بها ايمانا مطلقا

ـ عجبا ! كيف تقول هذا يا سير اوليفر وانت مشرف على الموت

ـ ان اشرافي على الموت يا كابتن لاى هو الذي يجعلني ازداد تشبثا بهذه العقيدة

ـ ولكن اله المسلمين ليس هو الاله الحقيقي

فابتسم السير اوليفر ، في اشفاق ، من جهل لاى وقال :

ـ ان الله واحد في كل مكان وزمان وان اختلفت السماؤه القدسية

ـ واذا كنت مؤمنا حقا ، الا تخاف ؟

ـ من اى شيء ؟

ـ من النار .. من جهنم الخالدة

ـ انني أومن يا كابتن لاى برحمة الله ، وانه لن يعذبني على شيء قدر على منذ الازل . حقا لقد اخطأت ، ولكنني ايضا تعذبت كثيرا، ولاشك ان رحمة الله واسعة

فقال الكابتن لاى محتجا :

ـ ولكن هذه فلسفة العقيدة الاسلامية

ـ انها فلسفة تملأ القلب بالامن والراحة والسكينة . وما احوج خاطىء مذنب مثلك اليها يالاى

فغمغم الوغد لاى قائلا :

ـ اننى لا اريد ان أومن بشىء

ـ ان عدم ايمانك لن يضر الله شيئا .. ان الله فى غنى عنك وعن العالمين . ولكن ايمانك به وبرحمته سيفيدك ، وقد ينجيك من غضبه وعذابه .. هلم ابتهل وصل معى كما علمتك كيف تكون الصلاة . وثق اننى سأطلب من السير كيليجرو ان يطلق سراحك

ـ انه لن يحقق لك هذا الطلب ..

ـ لقد اقسم بشرفه

ـ ولكننى قتلت ليونيل

ـ اجل .. ولكن هذا كان قبل الاتفاق على الشروط . وانا واثق ان السير جون سيبر بوعده ، ولن يحنث بقسمه

وتنهد الكابتن فى ارتياح ، وقد شعر ان ظلال المشنقة قد ارتفعت عن راسه

وبعد ذلك استغرق السير اوليفر فى النوم . ولشد ما دهش الكابتن لاى حين سمع انفاسه المنتظمة وهو نائم . واخيرا ادرك فى تلك اللحظة ان الايمان يملأ القلب حقا بالامن والسكينة والرضا بقضاء الله وقدره

وفى هذه اللحظة ايضا قرر الكابتن لاى ان يؤدى واجبه كاملا نحو السير اوليفر ، ومن ثم قال للبحارة الذين جاءوا فى الصباح ليأخذوا السير اوليفر بمفرده :

ـ خذونى معه ..

ـ لا .. ان الاوامر لم تصدر بشانك بعد

ـ ولكن لدى اقوالا اريد ان اذكرها للسير جون .. يجب ان يعرف الحقيقة كاملة قبل فوات الاوان

فضربه احد البحارة بعنف على راسه واسكته ، وعندئذ قال السير اوليفر :

ـ اشكرك يا كابتن لاى على رغبتك النبيلة فى اظهار الحقيقة ..

ولولا القيد الذى فى يدى ، لصافحتك .. وداعا يا صديقى

واقتيد السير اوليفر الى وسط السفينة حيث امره البحارة بالجلوس على كومة حبال الى ان يصـــدر الامر بدخوله قاعة المحاكمة

وجلس فى مكانه يتلفت حوله ، ويتجاهل نظرات الفضول المصورة اليه من البحارة جميعا . وكان يحاول أن يلمح روزاموند فى اى مكان .. ولكنه لم ير لها اثرا رغم مرور فترة طويلة ، وهو جالس ينتظر مصيره فى صبر واحتمال

▱

بذل السير جون كيليجرو واللورد هنرى جود والدكتور توبياس جهودهم لتوفير أسباب الراحة لروزاموند التى سقطت مغشيا عليها من فرط الارهاق والتوتر العصبى ، ثم حملوها الى مقصورة القيادة ، وتركوها تستريح فى سلام حتى الصباح ...

وعاد الدكتور توبياس بعد أن فحص ليونيل وبذل جهده ليضمد جراحه ، وقال للسير جون :

ـ ان الامل معدوم فى نجاته ، وان شبح الموت يزحف عليه بسرعة

وقال اللورد هنرى جود :

ـ مهمتنا الان هى محاكمة اوليفر تريسيليان واصـــدار الحكم عليه قبل أن يموت ليونيل ، وعسى أن يموت قرير العين حين يعلم اننا انتقمنا له من ذلك الوغد الآثم

فقال الدكتور توبياس :

ـ ان مهمتك يا سيدى هى اقرار العدالة والانصاف ، لا الانتقام

وقال السير جون كيليجرو فى حزن شديد :

انى لا ادرى كيف ستتحمـل روزاموند المسكينة نبأ وفـاة خطيبها ليونيل

فهز اللورد جون كتفيه وقال :

ـ لا بد ممـا ليـس منه بد .. وقد احتملت الشىء الكثير حتى الان ، فلا بأس أن تحتمل هذه الضربة الاخيرة .. هلم لتشكيـل مجلس المحاكمة

ودخل اللورد هنرى جود الى قاعة القيادة حيث وجد روزاموند

قد استيقظت ، وراحت تتلفت حولها قائلة :

ـ اين السير اوليفر ؟

فقال السير جون مواسيا :

ـ سوف يحضر حالا .. اطمئنى .. ان حبل المشنقة معد له منذ الآن

فوثبت قائلة فى اهتياج :

ـ اتشنقونه بلا محاكمة ؟

فقال اللورد هنرى جود :

ـ بل بمحاكمة عادلة .. وانا الذى سأحاكمه هنا ، وانا الذى سأحاكمه هناك فى كورنوال ، اذا رفض الاعتراف بمحاكمتنا له هنا ، لأن الملكة اصدرت قرارها بتعييني كبير القضاة فى ذلك الاقليم

وقال السير جون كيليجرو ، وقد اخطأ فهم انفعال روزاموند :

ـ يحسن باعزبزتى الا تحضرى هذه المحاكمة .. فان اعصابك ..

فهتفت قائلة :

ـ بل سأحضرها .. لأن لدى الكثير مما اريد ان اقوله امامكم

وبعد ان تشكلت هيئة المحكمة من اللورد هنرى جود رئيسا ، ومن السير جون كيليجرو والدكتور توبياس واثنين من كبار ضباط السفينة اعضاء ، امر اللورد هنرى ان يوضع مقعد للآنسة روزاموند بجوار منصة القضاء ، ثم ارسل فى استدعاء المذنب السير اوليفر تربسيليان

وتركزت انظارهم جميعا على الباب ، عندما سمعوا دبيب اقدام تقترب منه . ولم يلبث السير اوليفر ان ظهر بقامته الطويلة ، وملابسه العربية ، وعمامته الملتفة حول خوذته المخروطية ، وقد ارتفعت منها ريشة ملونة ، وتألقت فيها الماسة الكبيرة ، وكانت يداه مقيدتين ، وعلى جانبيه اثنان من الحراس المسلحين

ووقف السير اوليفر برهة يدور بعينيه فى وجوه القضاة الخمسة ، ثم تألقت نظراته بالدهشة حين رأى روزاموند فى مكانها بالقرب من المنصة . واخيرا قال وهو يتقدم الى داخل القاعة بثبات :

ـ طاب يومكم ايها السادة

ونظر السير جون اليه ، وقال باحتقار :

ـ لا شك انك تعرف الغرض الذى استدعيناك من اجله

فقال أوليفر بلهجة لا تخلو من تهكم :

ـ أجل .. أجل .. اعرف انكم استدعيتمونى لتشفوا غليلكم برؤيتى معلقا على حبل المشنقة . ولكن ، هل كان من الضرورى ان ترهقوا الآنسة روزاموند بمثل هذه المحاكمة الصورية ؟

فقال السير جون متجهما :

ـ هذه هى ارادة الآنسة روزاموند

فازدادت امارات الدهشة فى عينى أوليفر ، ولكنه هز كتفيه وقال :

ـ حسنا .. ولكن هناك امرا يجب ان نفرغ من بحثه قبل البدء فى هذه المحاكمة ، ذلك ان السير جون اقسم بشرفه وشرف بلاده الا يؤذى احدا أو يأمر رجلا من رجال السفينة العربية . ولهذا دهشت حين وجدت هنا رجلا يدعى الكابتن لاى ، كان معى على السفينة العربية . وانا اعتقد ان شرف السير جون يقتضى اطلاق سراح هذا الرجل فورا

فقال اللورد هنرى جود :

ـ أمثلك يتحدث عن الشرف ؟

ـ اننى اتحدث عن شرف السير جون

فقطب السير جون جبينه ، وقال فى حيرة :

ـ وماذا تريد ان افعل به ؟

ـ تعده باطلاق سراحه والسماح له بالنزول فى أى ميناء يريد .. والآن ، اننى تحت أمركم ورهن اشارتكم ايها السادة

وبعد برهة من الصمت ، قال السير جون :

ـ لقد جئنا بك هنا لنتيح لك الفرصة للدفاع عن نفسك ان كان لديك ما يمكن ان تدافع به عن اعمالك الرهيبة

ـ اننى لم اتعود أن أرهق نفسى فيما لا جدوى منه . وعلى هذا يحسن أن تصدروا حكمكم وتنفضوا ايديكم منى

فقال السير جون :

ـ اننا نترك لك حرية الاختيار فى أن تحاكم أمامنا هنا ، أو فى

كورنوال . ولكن اعلم ان اللورد هنرى جود هو الذى سيحاكمك هنا بحكم منصبه الجديد

ـ تهانى القلبية للورد هنرى جود

ـ والآن .. ما رايك ؟

ـ رايى انى لا اريد ان اعلق رقبتى فى الهواء . ولكن ما دام هذا الرجاء لن يتحقق سواء كنت هنا او هناك ، فيحسن ان تنتهى من هذا الأمر بسرعة

فقال اللورد هنرى جود :

ـ التهمة الاولى الموجهة اليك هى القرصنة، وعقوبتها كما تعرف الاعدام

ـ هل قرات يا سيدى قانون القرصنة ؟

ـ ماذا تعنى ؟!

ـ اعنى ان قانون القرصنة فى انجلترا لا يعاقب اى قرصان بحرى ما دام لا يجرى عملياته فى نطاق المياه الانجليزية

ولم يسع اللورد هنرى جود الا ان يعترف بهذه الحقيقة ، ولكنه قال :

ـ الم تات الى اردينالك ، واختطفت بالقوة ؟!

ـ مهلا يا لورد هنرى .. ان الاختطاف شىء يختلف تماما عن القرصنة

فضرب السير جون المائدة بقبضة يده قائلا :

ـ ليكن لك ما تريد .. ان عقوبة الاختطاف هى الاعدام على كل حال .. فما هى اقوالك فى هذه الجريمة ؟

ولمح السير اوليفر وجه روزاموند يتألق بالسرور الخفى دون ان يدرى لماذا .. ولكنه قال :

ـ انى لا اجد ما اقوله فى هذا الشأن ، ويحسن بكم ان تحكموا باعدامى وتفرغوا من امرى

وهنا وقفت روزاموند ، وقالت :

ـ ولكن لدى انا ما اقوله فى هذا الشأن

فهتف السير جون ، وقال :

ـ روزاموند ؟ ماذا تعنين ؟

فقالت بحزم :

ـ ما دمتم تحاكمونه على جريمة الاختطاف ، وما دمت انا طرفا فيها ، فانى اعلن هنا انه لم يختطفنى ايها السادة . اننى احبه .. احب السير اوليفر تريسيليان ، وانا الان بالغة الرشد ومسئولة عن كل تصرفاتى ، ولهذا اقول انى ذهبت معه بمحض ارادتى الى الجزائر حيث اصبحت زوجته الشرعية

ولو انها القت فى القاعة قنبلة ، لما كان لها من الاثر الشديد على الجميع مثلما كان لكلماتها .. لقد ظلوا يحملقون فيها بوجوه جامدة وهم يغمغمون ، واخيرا قال اللورد هنرى جود متلعثما :

ـ زوجته الشرعية ؟!

وقال السير جون كيليجرو :

ـ لا شك انها فقدت عقلها او انها تكذب لتنقذه

فانحنت روزاموند نحو السير جون كيليجرو ، وقالت :

ـ ولماذا اكذب لانقاذه اذا كان قد اساء الى حقا ؟ ارجو يا سير جون ان تفكر تفكيرا منطقيا . وعلى كل حال ، فان كلمتى اقوى من كلمتك ، لان هذا الامر يخصنى

وقال اللورد هنرى جود ، وهو يدق على المنضدة ليسكت الجميع :

ـ مهلا يا سير جون :

ثم التفت الى السير اوليفر الذى كان لا يقل عن الجميع دهشة، ثم قال له :

ـ ما رايك فيما تقول الآنسة روزاموند ؟

فتمتم اوليفر وهو يحس انه فى حلم :

ـ ماذا يمكن ان اقول بعد ذلك ؟

فصاح السير جون منفعلا :

ـ هذا كذب .. لقد شهدنا بانفسنا عملية الاختطاف ، وهى تحدث امام اعيننا ...

فقاطعته روزاموند قائلة :

ـ لقد رايت ذلك حقا .. ولكنك لم تكن تعرف ان هذه العملية كانت مدبرة بينى وبين اوليفر

وانعقدت السنة القضاة الخمسة امام هذه الاجابة ، ولكن السير جون قال متهكما :

ـ لعلك ستقولين بعد هذا ان خطيبك ليونيل تريسيليان قد دبر معكما ايضا هذه المؤامرة لاختطافه ؟

فقالت :

ـ لا ... ان على ليونيل ان يكفر الآن عن آثامه ، عن جرائمه التى اراد ان يلقى بها على كاهل اخيه البرىء

فقال اللورد هنرى جود :

ـ ماذا تعنين بهذا الآن ؟

ـ اعنى ان اوليفر لم يكن هو قاتل اخى ، وانما الذى قتله كان ليونيل الذى احتمى وراء اخيه .. ولما خشى افتضاح أمره ، دبر مؤامرة لابعاده عن البلاد ، وبيعه فى اسواق العبيد

فقال السير جون كيليجرو هادرا :

ـ ان هذه الفتاة تعبث بعقولنا .. او لعلها واقعة تحت تأثير نوع من انواع السحر الذى اشتهرت به بلاد المغرب

فقال اللورد هنرى :

ـ مهلا يا سير جون .. ان الأمر جد خطير ، والآن يا آنسة روزاموند ، هل لديك دليل ، اى دليل على صحة اقوالك هذه ؟

ـ اننى على استعداد لان اقسم على صحة ما اقول ... اننى اقسم امامكم وامام الله ان ليونيل هو قاتل اخى ، وانه هو الذى دبر مؤامرة ابعاد اوليفر عن البلاد حتى يقال انه اهرب خوفا من نتائج جريمته المزعومة . ولسوء حظى صدقت ما كان يقال عنه .. ولكن منذ ان عرفت الحقيقة ..

فصاح السير جون كيليجرو : مهتاجا :

ـ الحقيقة ؟ اتقولين الحقيقة ؟

ومرة اخرى تدخل اللورد هنرى جود قائلا :

ـ مهلا يا سير جون .. صبرا يا رجل ، ان الحقيقة هى التى ستظهر فى النهاية ، والآن يا آنسة روزاموند .. ما هى الادلة على صدق حديثك هذا ؟

ـ اى دليل اقوى من اننى احبه وقد تزوجته

ـ جاسبرلاى ، ربان السفينة سواللو

ورغم شحوب وجهها ، وارتعاد شفتيها ، فقد ارسلت روزاموند نظرة انتصار الى اللورد هنرى جود . ثم استدارت الى الشاب المحتضر ، واردفت قائلة بلا رحمة به :

ـ قل لهم يا ليونيل من الذى ارسلك فى الليلة الماضية الى سفينة السير جون ؟

فقال اللورد هنرى :

ـ لا ، كفى ارهاقا له .. لقد قال مافيه الكفاية واكثر .. ليغفر الله لنا تعصبنا وعمى قلوبنا يا كيليجرو

وقال ليونيل وقد ارتفع صوته فجأة ، وكأنه فى صحوة الموت :

ـ اهذا انت يا سير جون ؟ حسناء . انى ذاهب .. نعم ! انى ذاهب . لقد أصلحت ما افسدت بحماقتى وحقدى وسواد قلبى .. هات يدك يا أوليفر

وصاح أوليفر فى حزن شديد :

ـ ان يدى مقيدتان بالحديد يا ليونيل .. ولولا هذا لاخذتك بين ذراعى

وفى لحظة اليأس ، استجمع أوليفر كل قواه ، واذا هو يحطم القيد بحركة عنيفة من ذراعيه ، واذا هو يركع بجانب اخيه ويأخذه بين ذراعيه ويصيح :

ـ ليونيل .. أخى .. اخى

وبدا فى تلك الحظة ان كل ما كان بين الاخوين فى الخمس سنوات السابقة كان لم يكن .. واذا ليونيل يعود ، كما كان ، الاخ الاصغر الضعيف المحتاج لحماية أخيه الاكبر ورعايته

ـ ليونيل ، أخى الحبيب .. اخى المسكين .. اننى اغفر لك كل شىء . لقد كان الاغراء شديدا عليك ايها المسكين . ولكننى اغفر واصفح

والتمع وجه ليونيل فجأة بنور صادر من اعماق نفسه ، وهو يقول :

ـ أوليفر .. أوليفر .. هكذا انت دائما .. الاخ الكبير النبيل الرحيم .. هل قلت ما يكفى لاظهار براءتك ؟ .. قل لى

الآن انك بخير
ثم التفت الى الجميع ، وقال مبتهلا :
ـ اريد أن اطمئن عليه ..
فقال اللورد هنرى :
ـ نعم .. يمكنك أن تطمئن عليه يا ليونيل .. غفر الله لك
ـ الحمد لله .. لقد ذهب الماضى وراح ، والمستقبل الآن بين يديك يا أوليفر ، آه ، لقد كانت المسافة امس طويلة ، ولكننى سبحتها بنجاح .. اتذكر يا أوليفر مسابقاتنا فى السباحة ونحن غلامان .. آه .. لشد ما كان الجو باردا ، اننى ما زلت أشعر بالبرد ، وارتعد ..
ثم ارتعد جسمه ، وسكتت حركته تماما
ووسد السير جون راس ليونيل برفق على الوسادة . وخيم الصمت على الجميع ، ومد أوليفر يديه الى عينى اخيه فأسبلهما ، ثم عقد يديه على صدره ، وظل راكعا بجواره كانما يصلى من اجله . واخيرا نهض ببطء .. ، فتحرك الجميع الى خارج المقصورة
وفى ضوء الشمس فى الخارج ، وقف السير جون امام أوليفر مطرق الراس شاحب الوجه ، كاسف البال ، والخيرا قال بصوت الذى يحاول أن يعتذر أو يبرر سلوكه :
ـ كان صديقى .. وقد انخدعت بسبب حبى له
فقال السير أوليفر بلهجة جادة :
ـ وكان اخى .. ليرحمه الله
واستجمع السير جون كل شجاعته ، وقال :
ـ هل استطيع بدورى ان اسالك الصفح والغفران يا سير أوليفر ؟ !
فلما مد أوليفر يده اليه ، اسرع السير جون يصافحه بحرارة ، ويقول :
ـ لسوف نكون جارين ، واتعهد ان اكون جارا نموذجيا لك يا سير أوليفر
وهنا قال أوليفر ، وهو ينتقل بنظراته من السير جون الى

اللورد هنرى :

ـ هل أفهم من هذا انني لم أعد سجينا ؟ .

فقال اللورد هنرى :

ـ لم يعد هناك ما تخشاه من عودتك معنا الى انجلترا يا سير أوليفر ، وهناك سوف تسمع الملكة قصتك من شفتيك وامامنا ، ولدينا الكابتن لاى يؤيد أقوالك . واتعهد منذ الان بأن اعيد اليك كل حقوقك المدنية وكل ممتلكاتك . اعتمد علينا فى هذا يا سير أوليفر . والان .. علم أيها السادة ، فان لدينا واجبات أخرى ينبغى علينا ان نؤديها

وانصرف الجميع تاركين أوليفر وروزاموند بمفردهما على حافة السفينة ، معتمدين على سياجها ، يتبادلان نظرات طويلة . لقد كان هناك الكثير مما يريد كل منهما ان يقول ، ومما يريد ان يسأل ، ومما يريد أن يستوضح ، ولكن لم يكن أحدهما يعرف من أين يبدأ الحديث او كيف يبداه ..

وفجأة اندفعت روزاموند اليه ، باسطة ذراعيها نحوه قائلة بصوت اجتمعت فيه كل عواطفها المكبوته :

ـ يا حبيبى ..

وغاب الاثنان فى قبلة طويلة نسيا خلالها كل ما لقياه من آلام وحرمان طيلة خمسة أعوام

تمت

mersalli

روايات الهلال
مجلة شهرية للشرق القصص العالمى

هذه الرواية

فى هذه الرواية التى يسر سلسلة روايات الهلال أن تقدمها لقرائها فى مطلع العام الجديد .. تتجلى براعة الروائى العالمى الأشهر رافاييل ساباتينى Rafael Sabatini وقدرته العظيمة على تصوير أسمى العواطف الانسانية . تصويرا ينقل القارىء الى جو عربى ، يلمس فيه شخصيات الرواية وكأنهم يتحركون أمامه ويروحون ويغدون

وسيجد القراء فى هذه الرواية أنفسهم وكأنهم فى خضم صراع عنيف بين الحب العذرى الشريف القائم على الوفاء والتضحية والصدق ، وبين الحقد فى أبشع صوره .. بين الشهامة العربية فى أروع مظاهرها ، وبين الغدر فى أسوأ مظاهره ، والخبث فى أحط معانيه

لقد أبدع ساباتينى فى هذه الرواية « صقر البحر » « The Sea Hawk » كما هى عادته .. ولكن هذه الرواية هى فريدة فى طابعها ، وفى عرضها الشائق وفى تصويرها للمشاكل التى تقف عقبة بين المحبين ، وكيف يتغلبون عليها

المؤلف

* ساباتينى روائى انجليزى الأب وايطالى الأم

* تمتاز جميع رواياته بروعتها ، وبابداعه فى وصف انواع الاجسام فوق ظلمات الامواج ، وبين عواصف البحار

* له غير هذه الرواية التى نقدمها اليوم .. رواية «قيصر بورجيا» ، و « سيف الاسلام » و « قلبان فى عاصفة » التى ترجمناها فى روايات الهلال عام ١٩٥٤

mersalli

صقر البحر